# الخطية

## إيهاب ماهر



# الخطية

**إيهاب ماهر**

**الطبعة الأولى (يناير ٢٠١٧)**

**تصميم الغلاف: إسلام مجاهد**

**المراجعة اللغوية والتنسيق الداخلي: إسلام علي**

**مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)**

**إشراف عام: رباب الشهاوي**

**رقم الإيداع: 2016/22292**

**الترقيم الدولي: 978-977-6534-22-3**

---



دار الفؤاد للنشر والتوزيع

**Alfouad_publishing@hotmail.com**
**facebook.com/fouadpublishing**

# الخطية

(رواية)

## إيهاب ماهر



# ♥ إهداء ♥

إلى أمي... شكرًا لأني خبرت الدنيا بعينيكِ

إلى أبي وأختي

للكاتب أ/ محمد سمير

كريم محمد علي، إسلام مجاهد، إسلام علي

أهدي الرواية لنفسها؛ فحينما بدأتها بدأت حياتي،

وعندما تمت انتهت.

وإن جاز لي الشكر لأشخاص بعينهم لن يعلموا يومًا أني

وجهت لهم غادروا أو رحلوا وفي القلب حاضرون.

وأخيرًا.... شكرًا لكل من خطَّ في قلبي ليعلمني أو

يشاركني تجربة حياتية جديدة لم أكن لأختبرها لولاه، مهما

اختلفت بين حزن وفرح.

* مازلت أمْسك القلم ولا أدري كم الساعة!... لا أدري ما أكتب! لا أدري لمن! أو حتى لماذا!؟....

إنه فقط إحساس داخلي يُراودني منذ فترة طويلة، ولم أجد يومًا الجرأة حتى لمجرد التفكير أن أخطه بقلمي..

الآن أمسك به بين أصابع يد لا أشعر بها، وبين لقاء أعين محمرة تريد النوم، وعقل لا يدري حتى ما يفعل..

ماذا أفعل!؟

أهو هاجس سيمضي كما تعبر حياتنا أمام الأعين فلا نشعر بها، ولا حتى تدركها الأبصار؟ أم هذه المرة سيكون هناك دافع أقوى يُجْبرني أن أستمر؟

وقُضْي الأمر. انتهت مشكلتي الأولى مع القلم، وبدأت معركة العقل.....

ما الذي يُفْكر به الآن؟؟ وما يستحق أن أعْطيه من وقتي؟

حتى لا يجيء يوم أعود فيه من حيث بدأت آسفًا نادمًا لأرجو الزمان أن يغفر ذلتي ليُعيدني على ما كنت عليه، ولكن هيهات أن يعود بك الزمان؛ إنها حياتك ستعيشها مرة واحدة فقط، إما أن تُصيب بها، أو تُخطئ فتكون من الخاسرين...

وتبقى في الحسبان أهم نقطة: هل ما أفكر به سيكون بالأهمية التي تدعو الآخرين حتى لمجرد التفكير في تصفح ما هو مخطوط؟؟

لا أدري، ولا أظن أن أحدنا يعلم حتى تخرج الأفكار من ظلمة العقول إلى نور الحياة.

ما زال القلب لا يطاوعني...

ما زلت أتهيب الموقف...

ما زلت أفكر.. وسأفكر؛ فهذا دليلي على أني مازلت حيًا، ولكن ما الفائدة (تفكير بلا عمل!!)

أفكار تتطاوح هنا وهناك.. أراها أمامي تنتظر من يستطيع اللحاق بها.. فهل من المعقول أنه فقط الكسل!!؟

آااه منه لو كان هو! فقد تضيع أعمارنا هباء.

نقطة انتظار وفاصل لأنظر ما كتبته الآن من كلمات لا تسعفني الذاكرة على تذكرها.

لم أبدأ حتى بتوليد الأفكار وأنسى ما كتبته للتو!

لماذا؟

وما عساي أفعل!؟

ولكن يبقى السؤال المحوري الأهم بعد كل تلك الكلمات.....

هل سأخوض المغامرة!؟

AFbcU

# (١)

ـ "هل ظننت يومًا أنَّا خطايا تمشي على قدمين؟ إن لم تظن ذلك يومًا فيكفيك فقط أن تنظر في المرآة لترى تل ك الخطيئة الساكنة، هل هي حقًا ساكنة؟ أم أن هناك من أيقظها لك؟

هل ظننت يومًا أن لك نصيبًا في ميراث ستأخذه يومًا ما؟ ولن يستطيع أحد مهما بلغت سطوته أن يحجب عنك حقك هذا، وأنك ستؤدي فيه دورك كما يُطْلب منك رُغْمًا عنك؟

الخطايا تورَّث كالمال... تورَّث كما هي، حتى صار تاريخنا مجرد شريط لا ينتهي، إنه فقط يعود ليبدأ لنا من جديد.

أظن حقًا أني أعيش في يوم واحد لا يأتي غيره؛ مجرد أحداث تنتقل وتتنقل هنا وهناك لتشكل لنا إحساس زور بأن هناك تغييرًا يحدث بين دقات عقارب الساعة التي لا تتوقف... وما زلت بعد عمري هذا وبعد كل ما عانيته أشك أن هناك خيطًا رفيعًا من الضوء سيأتي في نهاية ذلك النفق المظلم ليضيء لنا عتمة الليل.

متى ستتوقف خطايانا؟؟

ذاك هو السؤال الذي مازال يحيرني؛ فلطالما علمت من هنا وهناك أنه في زمن ما حاول أحدهم أن يُطْفئ تلك النار المستعرة التي أوقدها أجداده ليورثوه لهيبها... هذا أنا!

حاولت مجاهدًا أن أطْفئ تلك النار وأحتمي من لهيبها، وظللت أحاول وأحاول حتى خمدت... ولكني أشك... أشك حقًا في وجود تلك الجمرات تحت ذاك الرماد المتناثر، تنتظر أن تهب عليها رياح الفتن لتشتعل من جديد.

لا تبحث عن شخص ليحكي لك ما أقصد؛ فلن تجد أنسب مني لذلك بعد خمسة وأربعين عامًا قضيتها أعاني لفح لهيبها وأتعلم.. ومازلتُ أرى أن هناك الكثير

لأتعلمه، ولكن لكي لا أطيل عليكم تلك المقدمة العجيبة، فسأدخل معكم في بداية قصتي حسبما أذكرها. لقد فقدتُ الآن كل عزيز شاركني فيها وأصبحت الوحدة أنيسي، فلذا أنا أجد كل الوقت لأقص وأحكي معكم؛ فلست ذاهبًا لأي مكان حتى أنتهي مما أكتب لكم فيها....".

تنتهي الصفحة البيضاء التي يكتب فيها (حازم وصفي) بخطه الأنيق.. يضع القلم على مكتبه فوق تلك الأوراق التي قرر أن يكتب عليها حكايته، ويمد يده اليمنى لكوب الماء الذي أمامه... يرفعه على فمه ويشرب منه حتى يتبقى ثلث الماء في الكوب، ثم يقلب الصفحة مجددًا ويكتب....

ـ "صوت من بعيد يأتي ليتخلل ذلك البيت العتيق الذي أصابته الكآبة منذ رحيل كبيرهم، وكأنه حزن على فراقه.. تراكمت على نوافذه الأتربة، وواجهته القديمة أصبحت بالية كأنها خرجت توًا من القبر لتبث أحزانها حول الجميع، حتى كادت المنطقة أن تصبح خالية من سكانها.. فيخشى الناس الآن المرور حتى بجانب بوابته الخارجية التي أصابها الصدأ وأصبح لونها البني مائلًا للاصفرار بعد أن كانت منطقة عامرة يتوافد لها الناس طلبًا لكبيرهم الراحل.

صوت جميل لغناء الطيور وتسبيحها الذي تبقى تبقى لِيُحْيي تلك المنطقة البائسة فرحًا بقدوم يوم جديد، لم يكن منها ما يدري ما يُخْبِئ لنا القدر في ذلك اليوم من أيام الشتاء القارس.

رياح عاصفة، وجو محمل بالغبار ورمال الصحاري، تنتفض لتدخل المباني التي خشي الناس الخروج منها حين أحسوا بذاك الانقلاب المفاجئ، حتى أن أحدًا منهم لم يعلم لِمَ تغرد تلك الطيور.. أفرحًا باليوم الجديد؟ أم أنها تستغيث من قوة الرياح والتي سلبت بعضها أعز ما تملك: القدرة على الطيران.. الحرية.

نعم إنها الحرية! أعز ما يملكها أي كائن يتنفس على وجه البسيطة.. أعز ما يملك الإنسان في أي زمان.

الحرية في الاختيار.. الحرية في الحركة.. الحرية في القول والفعل؛ فقد يضيق بك المكان ويطول الزمان وأنت تعد أنفاسك في الأسر.. حتى لو كان أسرك مجرد هامش أنت وضعته لنفسك لتحد من تفكيرك.

هذه كانت وجهة نظر (ناجي) في الحياة.. طفل صغير لم يتجاوز الست سنوات كل ما كان يعرفه في هذه الحياة حنان أبويه، وطريقه للمدرسة حيث يتلقى أولى قواعد الحياة الغريزية: الإيمان، العدل، الفرض، الحب، والحرية، وهذه الأخيرة أضافت بالفعل له أملًا لطفل صغير لم يعِ بعد ما هو الألم.

كان دائمًا يتوق للخروج من بيته ليلعب مع الصغار أمثاله حتى ولو أمام المنزل الذي اعتبره سجنه الكبير، ولكن مع الأسف كان دائمًا الرد بـ(لا).. (ممنوع).. (مذاكراتك).. (واجباتك).. و(النوم).

إنه ملل مناسب لحياة روتينية، والتي لا تبدو أنها ستتغير قريبًا..

حتى ذلك اليوم الموعود الذي نحن فيه لم يبد أنه سيتغير كثيرًا عن أي يوم آخر.. يوم عادي جدًا لا يوجد ما يُفْرح به القلب لا في الخارج ولا بداخله، حتى أبواه لم يهتما به ولم ينصراه، لم يبحثوا عنه وتركوه مع تفكيره الصغير.

إنهما في همٍّ آخر، يرتدي محمود الجاكيت الجلد الأسود مُسرعًا وهو ينزل السلالم تتبعه زوجته ببطء والألم باديًا عليها من الحذاء ذي الكعب العالي والذي لم تعتد عليه بعد، حتى أن محمود لم يفهم أبدًا لِمَ تتحمل النساء كل هذه الآلام والعرقلة على الطرقات أثناء ارتداء أحذية الكعب العالي، فظلَّ يسأل نفسه ما الذي يميز هذا الحذاء عن غيره!؟ هل يكمن السر أنه يضيف إليهن ثقة بالنفس وعلوًا مع الإحساس بالطول الإضافي؟ أم فقط لأنه يُستخدم كسلاح إضافي فتاك وقت الأزمات!؟

لا توجد إجابة محددة حتى الآن، ولم يكن هناك وقت للتفكير في ذلك الوقت، خوفًا من التأخير، فلم يشغل محمود باله طويلًا وانحنى ليربط حذاءه الأسود هو الآخر بسرعة قبل أن ينظر خلفه لـ(نجلاء) التي مازالت تعاني على السلالم..

لعن الرجل حظه، ونادى عليها:

ـ "هل تستطيعين التحرك أسرع قليلًا؟ سنصل غدًا بمشية السلاحف تلك!"

قالها بصوت عالٍ ليشد انتباهها ويحثها على الإسراع، فلم تبد أي انتباه وكأنها في عالم آخر لا تسمع فيه إلا نفسها. تنظر نجلاء خلفها حين سمعت وقع أقدام صغيرة تتحرك من بعيد وصوت يبكي يرجوها أن تأخذه معها، وجاء الرد نظرة غضب من الأم، ليلحقه (محمود):

ـ "لن نتأخر (ناجي) حبيبي.. اصعد وأكمل اللعب حتى نعود"

رد (ناجي) وهو يمسح دموعه بطرف قميصه:

ـ "أريد أن ألعب بحذائي الجديد"

مشيراً لأبيه للحذاء الذي اشتراه له من إحدى التوكيلات العالمية.

رد محمود بحنان بعد أن أخرج علبة سجائره من جيبه الأيمن:

ـ "لن تلعب به خارجًا أبدًا. تحرك به في غرفتك قليلا ثم أعده مكانه... اتفقنا؟"

يخرج سيجارة ليشعلها، بينما يرد (ناجي):

ـ "اتفقنا"

ويجري (ناجي) لغرفته فرحًا قليلًا؛ فجاء رد محمود وكأنه إذن ليفعل ما يحلو له.

يسحب محمود الباب خلفه بهدوء، واضعًا سيجارته في فمه محاولًا تدفئة نفسه من البرد، تاركًا (ناجي) وحيدًا بغرفته يحاول بصعوبة ارتداء الحذاء الثقيل بالفعل ولا يعلم أبدًا لِمَ يكون ثقيلًا لهذا الحد!؟ فربما ليكسبه بعض الثبات أثناء الحركة. وأيًا يكن فقد ارتدى حذاءه بالفعل وبدأ يتحرك ذهابًا وإيابًا بغرفته التي وجدها ضيقة للحركة على تلك العجلات.. تصطدم قدمه بحافة السرير.. كاد أن يفقد وزنه فيضع يده على مؤخرة السرير حتى يقف ويعتدل.

ـ "يبدو فعلًا المكان ضيق للغاية.. أحتاج لمكان أوسع لألعب به بتلك العجلات اللعينة!"

قالها (ناجي) وهو يتلفت يمينًا ويسارًا لا يدري أين يذهب، فيفتش في عقله الذي خانه ولم يجبه إلا بفكرة واحدة: (الدور السفلي).

- "نعم، الدور السفلي أوسع قليلًا، كما أنه داخل المنزل لن يغضب أبي لذلك"

قالها (ناجي) متحركًا ناحية باب الغرفة.. يضع يده ساندًا على الجدار المقابل، ويفتح الباب بهدوء حتى لا يسمعه (عبد الصمد) المشغول بتحضير الغداء في المطبخ.. يصدر الباب صريراً خفيفًا لكنه يُفتح في النهاية.

ويبدأ (ناجي) مشواره ناحية السلالم...

AFbcU

# (٢)

خرج الأبوان مسرعين خوفًا من التأخير عن الموعد الهام في المحكمة، ولم يشعر أي منهما أبدًا برائحة الألم والموت التي تُخْيم على المكان.. إنه القدر المحتوم يضرب ضربته القاضية، وفي النهاية يبقى الإنسان وحيدًا عاجزًا على مفترق الطرق محاولًا بيأس أن يُظْهر قوته وهو أضعف ما يكون.

يدير محمود محرك السيارة ولا يدري ما الشعور الذي ينتابه الآن.. لا يدري كنهه، أهو حزن؟ أم قلق؟ إنه ألم دفين في ثنايا عقله لا يستطيع من ضيق مشاعره أن يحدده ليشتكي منه أو يحكي عنه ليرتاح قلبه.

كُتْب عليه الهم والحزن ما بقي له من عمره جراء ما فعله بماضيه.. ينظر من شباك السيارة للغيث الذي بدأت قطراته تنزلق على شباك السيارة بهدوء محاولًا أن يجد الراحة بها، ولكن هيهات!

ـ "هذا ما جناه أبي عليّ.. وما جنيت على أحد"

قالها محمود متمتمًا مع نفسه.. لم تسمع نجلاء سوى بعض الأصوات غير المفهومة، فردت عليه بعصبية:

ـ "هيا يا (محمود)! ما بك!؟ انطلق بتلك السيارة سنتأخر عن الموعد.. هيا الآن!"

ينظر إليها محمود بتوتر وعينين حمراوتين تملؤهما الدموع التي تأبى حتى أن تنزل.. يضع سيجارته في فمه ويأخذ نفسًا عميقًا.. ينظر للأمام وما زال شارد الذهن يفكر في الخطوة القادمة.. في المستقبل المعتم..

ـ "أعطِني تلك اللعينة!"

(نجلاء) بعصبية تمد يدها لتنزع السيجارة التي انقسمت في فمه... تفتح شباك السيارة بعصبية وتلقي بها خارجًا، في الوقت الذي نظر لها الرجل بعصبية، وكأنه

عاد للدنيا بعد فترة طويلة من الزمن لا يدري أمرّت به ساعة أم دقيقة أم مجرد ثوان معدودة، في لحظة توقف بها الزمن.

ـ "ما بك!؟ ما هذه النظرات!؟ هل تأخذ لي صورة!؟ هيا انطلق سنتأخر!"

ينظر محمود للأمام ويضغط على دواسة الدبرياج، يعطي السيارة غيارها الأول ويضغط على الدواسة الأخرى بعنف جعل السيارة تزحف على الأرض قبل أن تنطلق خارجة من البوابة التي وقف عليها الحارس ليغلقها بعد خروج الزوجين.

لا ينطق محمود بأي كلمة، مما جعل نجلاء تُخرج هاتفها المحمول وتبدأ البحث عن رقم هاتف شخص ما.. لم يعطها محمود أي اهتمام... إنه لا يتكلم الآن ولكن عقله ما زال مشغولًا بالتفكير.. يكاد ينفجر من شدة ما ألمّ به من الصداع.

يفتح تابلوه السيارة ويخرج منه شريط حبوب من دواء (..........).. يُخْرِج حبتين بعصبية ويبلعهما دون ماء ظنًا منه أن ذلك سيخفف عنه الألم.. يا لجهل هذا الرجل! لم يعلم أبدًا أن ألمه وقر في القلب ليس له ما يعالجه، وعليه فقط أن يتحمل الآلام التي زرعها بيديه.

ـ "هذا ما جناه أبي عليّ.. وما جنيت على أحد"

AFbcU

# (٣)

ينظر الرجل يسارًا وينتظر الفرصة المناسبة ليعبر مع المارة ماراثون عبور الطريق الرئيسي.. يبدأ في احتساب نسبة المرور بأمان وفرصه للنجاة، منتظرا أن تحين فرصته، وها هي تأتي سيارة من بعيد تسبق بفارق ثوان معدودة التي تليها.. نعم إنها اللحظة المناسبة قد أتت الآن ولن أضيعها.. لا يوجد وقت الآن.. "بسم الله"، وبنظرة خاطفة لوجه السائق القادم، التقت الأعين وكأنه حوار طويل دار بين الرجل وسائق السيارة لا يحدث إلا في مصر...

ـ "هل تسمح لي بالمرور؟"

ـ "دعني أحتسب فرصتي في الوقوف وأدرس حالتي المزاجية"

ـ "هل أعبر الآن؟"

ـ "امممم في الواقع... نعم، يمكنك ذلك"

دار هذا الحوار في أقل من ثانية، حوار لم يحتوِ على أي كلمات تُنتج جملًا، فقط تمّ بنظرة عين تبعها خطوة بالقدم اليمنى للرجل كأنه يؤكد عملية المرور تتبعها، إشارة بيد السائق لتتم عملية المرور بنجاح، ومع الأسف لم ينتبه للقادمة بعدها فعبر أول حارتين للطريق، وتوقف لثانية، تمر أمامه العربة النصف نقل محملة ببعض صناديق فاكهة البرتقال، ليلفح الهواء القادم منها وجهه، والماء المتناثر من عجلاتها يصطدم ببنطاله.. يعبر الرجل بعدها وينظر للسائق اللعين الـ...! في الواقع لا يوجد وقت للسباب!

يقف الآن في الجزيرة الوسطى للطريق يأخذ أنفاسه، سامعًا لنبضات قلبه الذي بدأ يضغط عليه، وسامحًا بالأكسجين أن يدخل رئتيه اللتين كادتا تنفجران من الركض لتتم عملياته الحيوية، واضعًا يده على جانبه الأيسر وكأن أحدهم أدخل به سكينًا.

ألم لا يحتمله أحد.. ينظر أمامه للمبنى القائم بشموخ ويقول في نفسه:

ـ "هيا يا رجل.. قد اقتربت بالفعل.. لا يمكنك الاستسلام الآن.. إنه يحتاجك بالفعل.. يحتاجك لتصل إليه في الوقت المناسب"

يأخذ نفسًا عميقًا آخر ويبدأ فعاليات الجزء الثاني من ماراثون العبور.. خطوة فالأخرى. لقد أصبح كسائر المصريين خبيراً باختراق الطريق بنجاح بنظرة خاطفة يمينًا ويمسك بعدها هاتفه المحمول ويبدأ عملية الاتصال بالرقم الذي لم يبذل أي مجهود في البحث عنه، حيث حاول الاتصال به بالفعل أكثر من عشر مرات دون جدوى.. وها هي محاولة أخرى تأتي.

يضع الهاتف على أذنه ويعبر آخر حارة من الطريق ليسمع:

ـ "الهاتف الذي تحاول الاتصال به ربما يكون مغلقًا. يرجى إعادة المحاولة فيما بعد"

المجيب الآلي اللعين الذي يكرهه الجميع..

ـ "اللعنة!" قالها وهو يضغط على مفتاح الإغلاق بهاتفه ويندب حظه، وبنظرة خاطفة وراءه للطريق الذي اخترقه بنجاح.

ـ "نعم قد وصلت بالفعل"

يأخذ شهيقًا عميقا ويخرجه من فمه ببطء محاولًا تخفيف الضغط على قلبه ورئتيه.. مرتان أخرتان ويخطو بقدمه اليمنى على الرصيف المحيط بمبنى المحكمة، لينظر أمامه للأربع عشرة درجة من السلالم الخارجية للمحكمة، التي بدت في هذا الجو وهذه الحالة النفسية كقلعة شامخة، وقد أضاف لها ارتفاع السلالم مزيدًا من الهيبة والشموخ.

حكَّ الرجل رأسه قليلًا ثم رقبته. أخرج منديلًا ليمسح به عرقه المتصبب بغزارة.. نظرة استهجان من الرجل لنفسه مستغرباً كيف يتصبب منه العرق في يوم

عاصف وبارد كهذا اليوم.. يبدو أن المجهود المبذول والطاقة التي استُهْلكت والتوتر قد بلغوا به المدى ووصلوا به للذروة.

أخذ رجلنا نفسًا عميقًا آخر، وبدأ يصعد درجات سلالم المحكمة، وكأنه يصعد للسماء. وصل أخيرًا لآخر درجة أمام البهو الرخامي بأعمدته العظيمة.. جعل شكلها بجانب المدخل الكبير الذي يبلغ ارتفاعه دورين رعشة خفيفة تسري في جسده..

نفس عميق آخر ويبدأ الركض مجددًا، حتى استوقفه أحد الشرطيين المكلفين بحراسة المحكمة..

- "أين تذهب؟؟"

قالها بعصبية بعد أن نظر نظرة شك للحالة الرثّة التي وصل إليها الرجل..

- "مد... مدخل قاعة المحـ.. المحكمة الرئيسية؟"

قالها الرجل بصعوبة وهو تحت التفتيش وبأنفاس متقطعة:

- "تمام.. نظيف"

كانت الإشارة الكفيلة ليشير له الشرطي الآخر للاتجاه المطلوب.

شكره الرجل باستحسان وابتسامة خفيفة رسمها بصعوبة على شفتيه، ليبدأ في الركض مجددًا متبعًا إشارة الشرطي ليصل لقاعة المحكمة.

AFbcU

## (٤)

أصوات تصدر من سيارة الإسعاف التي تهرول على الطريق الرئيسي بين تلك القرية الحزينة والمدينة الرئيسية في اتجاهها لمستشفى الطوارئ العامة.. أصوات مختلطة ما بين (سرينة الإسعاف) ونداء المسعف في مكبر الصوت يستغيث وآمراً السيارات أمامه لتُفْسح له الطريق، وقد بدأت الأصوات بالفعل تؤتي ثمارها.

ـ "يا ساتر يا رب! اللهم سترك وشفاك!"

رددها سائق السيارة (الميكروباص) قبل أن ينحرف يميناً على جانب الطريق وتمر من جنبه الإسعاف كالسهم المنطلق لتعبر مدخل المدينة المزدحمة في وقت الذروة حيث خروج الجميع من أعمالهم، وكأن الشوارع أصبحت فجأة جراجًا كبير للسيارات التي لا تتحرك.

ـ "أفسحوا الطريق!"

تأفُفْ من سائق الإسعاف قبل أن ينحرف في أقرب فرصة واتته يميناً في ذلك الشارع التجاري الضيق هرباً من التكدس على الشارع الرئيسي.. ينطلق بسرعة مكملًا نداءه في مكبر الصوت.. يصعد المشاة على الرصيف الضيق ويستند المارة على حوائط المباني والمحلات التجارية دون تذمر لأول مرة من ضيق الشارع.

انحرفت الإسعاف مجددًا يسارًا هربًا من الشارع التجاري، ليندُب السائق حظه حين يجد الشارع مغلقًا بسبب المبنى الذي تحت الإنشاء.. رمل وزلط وإسمنت وعربة (الخلاطة) تعمل لإنهاء صب سقف الدور الخامس المشدود.. ينادي متذمراً بعد تنهيدة في مكبر الصوت المعلق أعلى السيارة.

ـ "أفسحوا الطريق!"

وينحرف بعدها يميناً مرة أخرى ليقف في إشارة المرور وينادي على الشرطي:

ـ "حالة حرجة.. افتح الطريق!"

وبحسن تصرف وسرعة بديهة من شرطي المرور يبدأ في إيقاف السيارات التي تمر من الإشارة الخضراء، لتستجيب له بسرعة ويكُف السائقون عن التذمر عندما يرون مرور الإسعاف بينهم داعين الله بالستر.

تعبر الإسعاف الطريق المتوقف بعد تحول الإشارة للون الأحمر، ونصف السيارات ما زالت في منتصف الطريق في الاتجاهين تاركة مشكلة كبيرة وجب على الشرطي التصرف لحلها، ولا يهمه ذلك الآن؛ فعزاؤه الوحيد أن سيارة الإسعاف مرت بسلام، داعياَ الله أن يكون ساهم ولو بجزء يسير في إنقاذ تلك الروح البريئة.

تعبر الإسعاف مسرعة التقاطع الأخير لتتجه للميدان الرئيسي، بنافورته الخلابة التي تسر الناظرين بمياهها التي تبث البهجة على قلوب الناس؛ فـ(مدحت) سائق الإسعاف كان من أشد الناس انبهاراً وسعادة بالمياه التي تشعره من جديد بأنه حي مصدقًا على قول الله العظيم ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّاً﴾.

ـ "صدق الله العظيم.. وكأن المياه تنبض بالحياة أمامي!"

يُصدِّق مدحت على الآية الكريمة التي ترددت في رأسه، ولأول مرة يعبر من أمام تلك النافورة بهذه السرعة دون الاهتمام بها كما تعود دائمًا؛ فحسه المهني والمسؤولية على عاتقه كانا كافيان ليشغلا كل كيانه ليصل بمريضه للمشفى في الوقت المناسب.

نظر في المرآة لوجه المسعف الذي يُجْري الإسعافات الأولية للمريض.. يرفع له المسعف الإشارات المعتادة.. (إشارة برفع حاجبه الأيسر)، وكانت كافية ليزيد من سرعته؛ فقد علم الآن أن حالة المريض تزداد سوءَا!

ـ "أفسحوا الطريق! أفسحوا الآن!"

ـ "اللهم سترك وشفاك!"

وينحرف السائق يمينًا ليَفسح لمرور سيارة الإسعاف.

AFbcU

## (٥)

أصوات مختلطة تتردد في القاعة المزدحمة لا تفقه شيئًا منها، حتى لتتعجب كيف يتفاهم هؤلاء القوم وبأي لغة يتحدثون!

ـ "فرصتنا أصبحت جيدة جدًا... القضية مضمونة في أيدينا بإذن الله"

قالها المحامي قبل أن يُشْعل سيجارته.. ترد نجلاء بفرح:

ـ "بشَّرك الله يا أستاذنا! النسبة كما اتفقنا"

يرد المحامي ويتصنع عدم الاهتمام:

ـ "تمام تمام.. كما اتفقنا"

ينظر محمود خلف المحامي ليرى اللافتة الكبيرة مكتوب عليها [العدل أساس الملك]، وكان يعي معناها جيدًا بأن العدل الإلهي باق للأبد ويترصد به، لا عدل الأوراق التي تضطر قاضي الدنيا أن يحكم بها حتى لو علم أنها على خطأ، ولكن أين المفر من قاضي الكون عز وجل!؟

أسفل تلك اللافتة توجد ثلاثة كراسي للقاضي والمستشارين، وعلى يسارهم كرسي وكيل النيابة، وخلفهم يسارًا يوجد باب قاعة المداولة، والذي يخرج منه كاتب المحكمة وينادي:

ـ "محكمة!"

وكانت الكلمة التي ينتظرها الجميع ليصطفوا كلٌّ في مكانه، ويقفوا وكأن على رؤوسهم الطير. يدخل رئيس المحكمة ليجلس، ويقول كاتب المحكمة:

ـ "اتفضلوا"

يخاطب القاضي الجميع للجلوس لسماع النطق بالحكم في القضية.. وتشرئب له الأعناق.. يمسح محمود عرقه الذي تصبب منه من فرط التوتر وطول الانتظار بعد انقضاء مدة طويلة في المداولة مرت عليه كعمره كله.

يبدأ القاضي الكلام كما دوّنه على الورق أمامه، ليصل للجملة التي ينتظرها الجميع:

ـ "بعد الاطلاع على سائر أوراق الدعوى، وما بها من مستندات، وتم فيها من إجراءات، قضت....

AFbcU

# (٦)

مازالت سرينة الإسعاف تُقْلق المارة في الشوارع، ويُفْسح لها السائقون سائلين الله النجاة والستر.. وكيف ينجو الإنسان مما قُدْر له!؟

تصل السيارة للمستشفى أخيرًا بعد معاناة مع الطريق، ومعاناة المريض مع مرضه، لتدخل من باب الطوارئ... يقابلها طبيب وثلاثة مسعفين..

ـ "بسرعة بسرعة! هيا!"

يصرخ الطبيب بلهفة، ليبدأ المسعفون في جر العربة في اتجاههم للعناية المركزة، ليِحدد الطبيب مدى الإصابة وخطورة العملية الجراحية كما قدرها بعدما نظر لحالة المريض:

ـ "أخبر (سناء) أن تُجْهز غرفة العمليات فورًا!"

يصرخ الطبيب في أحد المسعفين، ليهرول للغرفة الخاصة بالممرضين باحثًا عن (سناء)...

ـ "أين أنا!؟؟"

يتأوه المريض ناظرًا بعينين كلون الدم، ومتحدثًا بصعوبة، لتخرج الكلمات من بين شفتين انتفختا وتحول لونهما الوردي لأزرق قاتم.. كانت آخر كلمات ينطقها ولا يدري حتى إن كان قالها قبل أن يفقد وعيه تمامًا.

ـ "لا! ابق معي! لا تستسلم الآن بالله عليك! هيا!"

ينادي الطبيب بلهفة، وبشوق، ينتظر إجابة يعلم تمام اليقين أنها لن تأتيه الآن.

ـ "ها هي الحقنة يا دكتور"

يتحدث الممرض وهو يسلم الحقنة الجاهزة للدكتور المُمسك بيد مريضه باحثًا عن وريد جاهز لاستقبال السائل.. يتحسس يديه ويضرب على مكان الوريد حتى يظهر له.

ـ "أين أنت!؟؟ هيا!"

يبدأ الوريد في الوضوح بلونه الأزرق الواضح(*).. يُدْخِل الطبيب الإبرة للوريد ويبدأ في ضخ السائل.. تفتح سناء باب غرفة المريض بالعناية المركزة.

ـ "غرفة العمليات جاهزة يا دكتور"

يرد الطبيب دون النظر إليها، مازال يتابع ضخ السائل في الوريد:

ـ "الحمد لله.. ضعي (الكانيولا) واعملي على هذا المحلول فورًا!"

ينصرف الطبيب ليبدأ في تطهير يديه وتغيير ملابسه المعقمة ليذهب لغرفة العمليات.

ـ "هل أنت جاهز؟ ستساعدني في العمليات اليوم"

يُحدث الطبيب صديقه الدكتور (محمد) الذي رد عليه بقلق:

ـ "هل سينجو؟"

ـ "لا أعلم.. لازلت لا أعلم.. لكن سنبذل أقصى ما في وسعنا لنجدته"

ـ "الله معنا.. كيف هي الحالة؟؟"

ـ "لا أخفي عليك، الحالة خطيرة، ويبدو جليًا من انتفاخ بطنه وزُرْقتها أنه يعاني نزيفًا داخليًا حادًا، كما أني طلبت أشعة إكس على الجمجمة والرنين المغناطيسي وتحاليل فورية نظرًا لوجود نزف من العينين والأذن، وجل ما أخشاه هو تسرب السائل النخاعي"

---

(*) لون الأوردة والشرايين هو أحمر غامق وإن كانت تظهر الأوردة بلون أزرق، ويعود ظهور الوريد بلون أزرق إلى وجود دهون تحت الجلد تعمل على امتصاص الضوء ذي التردد القصير وتسمح فقط للون الأزرق عالي الطاقة بالظهور من تحت الجلد.

يرد محمد بقلق:

ـ "كسر بقاع الجمجمة!؟"

ـ "يبدو ذلك.. سننتظر الأشعة، ولكن يجب أن نكون جاهزين.. سنحتاج التدخل الجراحي لإغلاقه وإيقاف ذلك التسرب.. وقد اتصلت هاتفياً بالدكتور زكريا فخر الدين استشاري المخ والأعصاب وهو في طريقه الآن"

ـ "هل عرفت فصيلة دمه؟ لربما نحتاج لنقل دم"

ـ "توقف عن هذا.. أخبرتك سننتظر التحاليل"

ـ "سأذهب لأرافقك معه.. لا يوجد ضغط في العمل الآن، وهو أهم حالة موجودة عندنا"

ـ "تمام... توكلنا على الله"

AFbcU

# (٧)

**في نهاية القاعة المستطيلة التصميم، يقف رجل يلهث بشدة متقطع الأنفاس من الركض.. يُغْلق الشرطي الباب الرئيسي خلفه.. يجول الرجل بنظرة باحثًا عن محمود في الوقت الذي يسمع فيه صوت الكاتب:**

**ـ "محكمة!"**

**ـ "الحمد لله.. في الوقت المناسب تمامًا!"**

**كان سهلًا عليه أن يجد محمود في الصف الأمامي الأول بعد أن اصطف الناس، ليذهب ويحدثه فيما جاء ليخبره به.**

**ـ "محمود بك!"**

**نظر محمود للرجل الذي عرفه من نبرة صوته الصعيدية المميزة:**

**ـ "عبد الصمد!!؟ ما الذي جاء بك الآن!!؟"**

**ـ "في الواقع سيدي.."**

**ينظر بعينين بائستين لنجلاء التي ترقبت الخبر بلهفة، يكاد قلبها ينتفض من شدة القلق.**

**ـ "تحدث يا عبد الصمد! ماذا يحدث!؟؟"**

**سؤال محمود لعبد الصمد يعلم من هيئته ونبرة صوته ومجيئه في هذا الوقت ليخبره في هذا المكان، وبتركه لمكان عمله رغم التحذيرات والتهديدات بالطرد والفصل، أنه لا يحمل إلا السوء!**

**يُقْرب ماجد فمه من أذن محمود اليسرى، واضعًا يده اليمنى على كتفه واليسرى على المنضدة الواقعة أمام الكرسي، ويبدأ في سرد قصته.. وقبل أن يُكْملها انتفض محمود واقفًا، وقد انتفض قلبه من قبل، مقاطعًا كلام القاضي الذي سَكْت عندما**

أذهلته انتفاضة محمود، فعلم بعين الخبير أن هناك خطب ما يحدث، وأن الغريب الذي تكلم في أذنه أخبره بخبر سيئ، وأنه تصرف حسن عندما لم يأمره بالابتعاد للجلوس في آخر القاعة وقت إعلان الحكم؛ فلقد شعر من داخله بوقوع خطب ما. منعته إنسانيته من الحفاظ على البروتوكول المُتَّبع.

- "حكمت المحكمة....

آخر كلمات سمعها محمود من القاضي.. لا، إنها آخر كلمات سمعها من الدنيا، في تلك اللحظة التي توقف عندها الزمن! لم تطاوعه عيناه ليبكي، ورفض قلبه أن يطيعه ويتوقف عن النبض؛ ليُفَارق الحياة بعد أن تساوى عنده كل شيء.. تساوت لديه الحياة والموت... تأكدت حينها ظنونه.

يقف الآن أمام لحظة الحقيقة الكاملة، والتي ما كان يتوقع قط أنها ستحل عليه قبل أن يُمْسك بيديه كل شيء.. أبت الحياة أن تطاوعه... لقد بدأ موسم الحصاد لما زرعه بيديه!

- "هذا ما جناه أبي علي.. وما جنيت على أحد"

لم يعلم معناها قبل الآن.. ولم يعلم لما خصّه أبوه بتلك النصيحة.. تذكرها كاملة وكأنها قيلت منذ ثوانٍ معدودات، حتى أصبح يحس بأنفاس والده الساخنة التي تخرج من فمه لتلفح وجنتيه مسببة له القشعريرة ذاتها التي دومًا ما تسري بجسده حين يتذكره وهو يبكي ويخبره على فراش الموت.

- "أرحتني يا ولدى.. كنت أعلم أنك من سَتُوفِّي الدين.. هذا ما جناه أبي علي.. وما جنيت على أحد.. كما تدين تدان"

نعم عرف الآن ما حدث، حتى كأنه توقع تلك الخاتمة بالضبط، وكأن أبواب السماء فُتْحت له ليرى خلالها مستقبله المظلم، أو إن صح القول حاضره الذي انتهى.

يهرول مسرعًا نحو باب القاعة الرئيسي، والناس تنظر له بذهول.

ـ "إنه لم يسمع الحكم الذي انتظره طويلًا!"

يتحدث أحدهم، فيما يقول الآخر:

ـ "ماذا يحدث!؟ ماذا أخبره هذا الرجل؟؟"

ـ "محمود أين تذهب؟؟"

ينادي القاضي بصوت عال، ليسمعه محمود الذي لم يرد النداء.. إنه الآن يهرول في عالمه المظلم الذي لا يوجد به عينان تريان ولا أذنين يسمع بها.. لم يكن له أنيس في تلك الظلمة سوى صوت عقله الذي يذكِّره دائمًا بما فعل بماضيه فظلَّ يقول له:

ـ "عِشْ أيها الأحمق.. عش لترى ما فعلت.. عش لتحصد ما زرعت يداك... عش لتتمنى موتًا لن تناله.. عش الآن عش وحيدًا كما أحببت أن تكون.. أردت الوحدة فهنيئًا لك بها"

ـ "ماذا حدث يا ماجد؟؟ أخبرني ماذا حدث؟؟"

تُمْسك نجلاء بقميص ماجد، ذلك الخادم الذي اضطرت لترك ابنها الوحيد الآتي بعد انتظار معه. شدته إليها حتى انقطع أول زر من أزرار القميص البائس من شدة السحب، لينظر لها ماجد محملقًا ويرد:

ـ "سأخبرك بكل شيء.. هيا لنلحق محمود بك أولًا"

وبعين دامعة تتبعه، لا تدري أتحزن على الخبر الذي لم تسمعه بعد، أم تحزن على فقدان زوجها لعقله!

انقلبت القاعة مجددًا لصخب، وتخاطب لأصوات مختلطة لا تفقه بأي لغة لعينة يتحدثون، حتى يدق القاضي على المنضدة أمامه بمطرقته الخاصة.

ـ "الصمت من فضلكم! وإلا سَأخْرج الجميع من القاعة!"

**يصمُتْ الناس رُغمًا عنهم ويبدؤون في الجلوس في أماكنهم مجددًا، إلا ذلك الرجل الواقف والقلق بادٍ عليه، والحيرة، لا يعلم أيتبع أخاه؟ أم يستمع للقاضي؟ حتى أخرجه محاميه من حيرته ساحبًا إياه من يده.**

**- "اجلس"**

AFbcU

## (٨)

ـ "أهلًا وسهلًا دكتورنا العزيز.. مرحبًا دكتور زكريا.. الدكتور مصطفى بانتظارك على شوق"

ـ "الحال تمام الحمد لله.. كل شيء معي مازال كما هو لم يتغير شيء"

وبابتسامة مصطنعة خفيفة على وجهه البادي عليه الإرهاق التام؛ رغم صغر سنه الذي لم يتجاوز الثالثة والأربعين، إلا أنه بدا في التسعين من عمره، يعمل ليل نهار؛ فقد كان الدكتور زكريا فخر الدين مثالًا حيًا على أن العبقرية نوع من أنواع الجنون.. عَلَم من أعلام الطب المتخصصين في المخ والأعصاب والمعدودين عالميًا. ورغم شهرته الواسعة لم يهتم أبدًا بمظهره الخارجي؛ نفس الملابس قد يرتديها لأيام، لا ينظر لمرآة، لا يُمشّط شعره، فبدا كأنه رجل كهف جاء من العصر الحجري لا ينتمي للقرن الواحد والعشرين.

رجل وهب حياته للعلم، وبالرغم من أن الله لم ينعم عليه بنعمة الإنجاب إلا أن العدل الإلهي لم يحرمه مواهبه الفذة، حتى أنه كان يقول دائمًا متفاخرًا:

ـ "أنا من العلم والعلم مني، يُربّي أحدنا الآخر"

يظن أن العلم هو ابنه الذي لم ينجبه، فوهبه حياته.

يمشي د/زكريا فخر الدين مع الدكتور محمد في طرقة المستشفى الطويلة للقاء د/مصطفى المشرف على الحالة الحرجة في الطوارئ، والذي استدعاه على عجل، ولم يكن د/زكريا ليتوانى أبدًا عن إنقاذ روح بشرية طالما أمكنه ذلك.

يمشي مع د/محمد مشيته المميزة والتي بها عرج قليلًا ناتج عن حادثة حدثت له صغيرًا وأخطأ الطبيب في تشخيصه وعلاجه فحرمه نعمة الإنجاب وحرمه مشية مستقيمة، فقرر بعدها أن عليه أن ينقذ سمعة الطب التي لوثها أمثال طبيبه.

مرتديًا بدلته المميزة بنية اللون، ومخبئًا نظراته الحادة التي تشع ذكاء وتَنَبُّهًا

وحرصًا دائمين خلف عدسات نظّارته الدائرية.

يدق على باب الغرفة، قبل أن يفتحها ويخطو بقدمه اليمنى إلى الغرفة التي هبّ د/مصطفى واقفًا من مكانه لمجرد رؤيته الطارق؛ لمكانة د/زكريا واحترامه الشخصي له.

وبتحاشي نظراته الحادة كما كان يفعل دائمًا يُرحب د/مصطفى قائلًا:

ـ "مرحبا يا دكتور.. كيف حالك؟ أتمنى أنك بخير"

ـ "الحمد لله.. أفضل حال"

ـ "جيد جدًا أنك وصلت في الوقت المناسب"

ـ "حاولت أن أصل أسرع من ذلك، لكنك تعلم ظروف الطريق في ساعة الذروة.. ما هي الحالة؟"

يرفع د/زكريا نظارته ليُعيدها مكانها أمام عينيه، فيما يقول د/مصطفى:

ـ "وصلتنا الآن نتائج الأشعة المقطعية والتحاليل، وهي كما ترى سيادتكم"

يُقلّب د/زكريا في أوراق التحاليل وينظر أمامه إلى جهاز عرض الأشعة المقطعية، حين أضاء له د/مصطفى مصباح الجهاز لتنير الأشعة وتظهر بوضوح.

ـ "كسر بقاع الجمجمة وتسرب في السائل النخاعي، الحالة لا تستطيع الانتظار أكثر من ذلك"

ـ "هل جهزت غرفة العمليات؟ الحالة لا يُمْكنها الانتظار أكثر من ذلك.. يجب التدخل الجراحي فورًا!"

ـ "لكن يا د/زكريا الحالة متأخرة وضعيفة، قد لا تحتمل مثل تلك العملية الخطيرة"

قالها د/مصطفى وهو يُغْلق جهاز العرض، وأكمل:

ـ "لقد جهّزت غرفة العمليات بالفعل"

**ـ "لهذا أنا هنا.. هل هناك أحد من أهل المريض؟"**

**ـ "لا، كان هناك خادمهم وذهب ليُحْضر أحد أبويه.. يبدو أن هاتفهم خارج نطاق الشبكة"**

**ـ "لا يهم ذلك؛ فلا يوجد طريقة أخرى لتفادي وجوب العملية، لابد من ذلك، لابد من إيقاف التسرب النخاعي وإغلاق مكان التسرب بأسرع وقت وبأي وسيلة ممكنة"**

**ـ "توكلنا على الله"**

**يضرب د/مصطفى الجرس على مكتبه ليَحضر الممرض فيقول له.**

**ـ "بسرعة.. الحالة ٣٠٧ إلى غرفة العمليات!"**

**ـ "شكرًا لله أنك معنا الآن! تفضل سيادتك لتُجْهز نفسك للعمليات"**

**يقوم د/زكريا من جلسته:**

**ـ "بسم الله"**

**قام ليبدأ الإجراءات المُتَّبعة لتطهير يديه، وارتداء الملابس الخاصة بالعمليات، وما إلى ذلك من الأمور، وقد سبقه إلى ذلك طبيب التخدير في انتظار دخول الحالة"**

**ـ "هيا هيا أسرِع قليلًا"**

**يقولها الممرض لمن معه، وهم يسحبون معهم العربة التي تحمل مريضهم إلى غرفة العمليات؛ فهذا أحدهم يُمْسك بالمحلول ليثبته، والآخر يحاول تثبيت رقبة المريض ليمنعه من الحركة الكثيرة حسب أوامر د/مصطفى.**

**دافعين العربة أمامهم في ذلك الممر الطويل حتى يصلوا إلى الباب الكبير المروحي في آخر الغرفة، ليدفعه الممرض تاركًا خلفه ضلفتي الباب تدخلان وتخرجان مُحركتان لافتة عُلْقت على الباب تحمل عنوان:**

**(غرفة العمليات – ممنوع الدخول!)**

AFbcU

# (٩)

ـ "ابتعد عن طريقي!"

يُهرول محمود دافعًا الرجل الواقف أمام الباب الكبير للقاعة الرئيسية في نهاية القاعة المستطيلة، يفتح الباب بيده اليسرى، ومادًا يده اليمنى أمامه بحركة لاإرادية وكأنها تحولت بالنسبة له كأداة استشعار عن بُعد تُنْير له طريقه، أو مجرد وسيلة ليُخْلي بها ممرات المحكمة المزدحمة بالأشخاص من هنا وهناك.

بعضهم في طابورهم الطويل أمام المصعد، منهم من يحاول النزول وآخرين يريدون الوصول للأدوار العليا، وهناك من يهرول حاملًا بعض الأوراق بين يديه.. على طرف السلم الذي اتجه إليه ليهبط كانت تجلس امرأة تحمل طفلها الصغير الذي ملأ بصراخه وعويله المكان، وكأنه يساعده بدموعه وصراخه الحزين، حتى حسده محمود على هذه القدرة الفريدة على مواصلة الصراخ، وتمنى لو يفعل المثل، ولكن تَحجر قلبه وقَسى كما عوده دائمًا.

يبدأ محمود في هبوط درجات السلالم التي بدت أمامه أنها امتدت إلى المالانهاية.. يقفز بالثلاث درجات في المرة الواحدة علَّه يختصر الوقت أمامه.

كاد أن يفقد توازنه فيقفز ليستند على الحائط المقابل:

ـ "انتظر! محمود توقف قليلًا!"

لم يرد محمود متعمدًا، أو يبدو أنه لم يسمعه في الأصل، فظل يهرول محافظًا على سرعته، وخارجًا من باب المحكمة.. يهبط السلالم الرئيسية لينظر أمامه إلى موقف السيارات في الجهة المقابلة من الطريق، وفي الواقع كانت مجرد أرض فارغة جرداء استغلها أحدهم كمكان انتظار السيارات، وأيًا تكن ماهيتها فلقد أوقف بها سيارته نظراَ لانعدام أماكن الانتظار الأخرى، ولأنه كان متأخر على موعد الجلسة.

وفي لحظة تفكير وحيدة اتخذ قراره المصيري، سيعبر الطريق مجتازًا صفوف السيارات المسرعة.

- "لا يوجد وقت للانتظار!"

قالها في نفسه وبدأ يجري عابرًا للطريق، يلتفت يمينًا ويسارًا بعقله المشغول دون أن يرى الطريق، ودون أن يعي أنه اتجاه واحد، إنها فقط حركات لاإرادية قام بها جسده كما تعود دون أن يدري، حتى لم يلتفت، ودون أن ينتبه للسيارة المندفعة إليه.. إنها سيارة نقل مسرعة ارتكزت يد سائق على آلة التنبيه محدثة صخبًا عاليًا يصم الآذان كمحاولة بائسة من السائق لتنبيه الرجل المجنون الذي يعبر الطريق دون أن يرى، وكيف لا يرى سيارة ضخمة كهذه!؟

- "محمود بك! انتبه!"

يصرخ ماجد الذي خرج من باب المحكمة للتو بعد أن فتش بعينيه عن محمود في كل مكان، حتى وجد رجلًا مخبولًا يجري نحو نهايته أمام سيارة مندفعة وهو لا يرى ولا يسمع ولا يدري كمن فقد إحساسه بالوجود، فلم يُتْعب تفكيره في ماهية الرجل، عرفه على الفور فنادى عليه.

- "محمود!!"

تصرخ نجلاء بعصبية نداء فاقد للأمل.

يقف السائق على الفرامل، ويسحب فرامل اليد، وقد بدأ يفكر ويفكر في الحلول الممكنة.. هل ينحرف نحو جانب الطريق؟؟ ولكن مع الأسف بحمولته هذه وبحساب بسيط بعقله وجد أن إمكانية نجاح ذلك محدودة.. قد ينقلب وتتضاعف الخسائر، وفي كل الأحوال سيصدمه سواء انقلبت سيارته أم لا، فلِمَ يُضْحي!؟

محاولته الأخيرة أن تقف السيارة على الطريق الزلق بفعل الأمطار، أو ينتبه الرجل فيهرب من الموت المحدق به.. يجز على أسنانه بقوة وبصوت داخلي مكتوم يصرخ السائق:

ـ "ياااا رب!!"

تزحف السيارة على الطريق الزلق بمياه المطر، فلم يُسّعف السائق الوقت، وكانت الصدمة! لم يسمع حينها السائق إلا صوت صرير ناتج عن احتكاك الكاوتش بالأسفلت، مما نبّه محمود لحقيقة ما يحدث. وكأن أحدهم أمسك قدميه، فتسمر مكانه ونظر إلى السيارة التي تقترب إليه زاحفة.

وأخيراَ توقفت السيارة بأعجوبة، سمع وقتها السائق صوت تحطم العظام كشرائح البطيخ التي تتساقط على البلاط من مكان مرتفع.

يهرول إليه عبد الصمد ليصل له بصعوبة بعد توقف السيارات وتعطل الطريق، وبدأت الجلبة بين من يحاول الاتصال بالإسعاف، ومن أمسك بالسائق الذي لا يدري أين يذهب أو ما حدث.

ـ "لست أنا المخطئ! إنه من وقف أمامي!!"

صوت السائق الذي ضاع وسط النحيب والصخب، ووسط آذان لا تسمع له، اقتنعت على مر السنوات أن السائق دائمًا هو المخطئ لأنه الرجل الذي يملك فرامل.

أسند ماجد رأس محمود على فخذه، وبدأ يمسح بمنديله القماش الدم الذي يسيل من رأسه على وجهه.

ـ "محمود!!"

تنادي نجلاء بصوت منخفض وهي تجلس بجانبه، لا يرد عليها النداء، فتضع كف يدها على فمها وتبدأ بالبكاء.. يفتح محمود عينيه ببطء.

ـ "محمود! ابق معي! هل تسمع صوتي؟ أنا بجانبك هنا"

لم يُرِد الإجابة، بل توجه بنظره إلى السماء التي أصبحت ضبابية أمامه فجأة.. انفصل تمامًا عن الواقع والوجود لا يدري ما حدث أو ماذا سيحدث.. فقط الغموض هو ما يراه الآن والخوف من المجهول.. يبدأ شريط حياته بالمرور أمام

عينيه كأنه شريط فيديو يشاهده فيرى أحداثًا متقطعة لا يتذكر حتى أنها كانت قابعة في عقله.. يأتي إليه صوت أبيه الذي لازمه، ليتردد في أذنيه كما كان دائمًا:

ـ "أرحتني يا ولدي.. كنت أعلم أنك ستوفي الدين. هذا ما جناه أبي علي.. وما جنيت على أحد. كما تدين تدان، وسترى ما سيحدث لتجني أنت ما زرعت يداي"

يحاول محمود جاهدًا أن يركز تركيزه ليحصل على صورة واضحة لماضيه.. يركز ليحاول التذكر.. ما حدث وما الذي بدر منه.. يحاول مجاهدًا أن يتذكر أيام حياته السابقة قبل أن تنتهي بفعلته التي جرت خلفها أحداث نهايته وكأنها نهاية العالم.

وأخيرًا! إنه يتذكر الآن! نعم يتذكر كل شيء. يراه يحدث مجددًا أمامه.. يتذكر غرفته التي لا زالت على حالتها الأولى ببياضها الزيتي ولونها البيج الفاتح.. والسقف الذي تدلت منه مروحة كانت تتراقص أثناء دورانها وكأنها تستنجد بصانعها ليرحمها مما هي فيه من العذاب.. والسقف الذي تدلت من جوانبه خيوط العنكبوت التي نسجتها بعد أن قلَّ شاغلي المكان أو انعدمت الأقدام التي تدب فيه، ففقد رونقه وأصبح أشبه بيوت الأشباح.

يتذكر ذلك الشباك الأبيض الذي دخلت منه أشعة الشمس متخللة أغصان الشجرة التي كانت تقف بشموخ أمام هذا الشباك تدفع عنه أشعة الشمس.. يتذكر صوت ذلك العصفور الذي ظل يغرد طيلة اليوم لأليفته.

نعم يتذكر ما حدث بالضبط وكأنه يحدث الآن مجددًا.. يسمع صوته.. يتذكر بوضوح..

AFbcU

# (١٠)

بخطوات ثابتة ومعتدلة اشتهر بها البروفيسور حازم وصفي أستاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة ليفربول، يخطو بها داخل ساحة الجامعة في اتجاهه لقاعة الدراسة حيث سيلقي محاضرته اليوم. رجل علم بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ لا يتكلم إلا عندما يجد الكلام المناسب في الموقف المناسب، يرد بهدوء، هدفه من المناقشة الإقناع لا المناقشة في حد ذاتها. أسماه طلابه وزملائه (أفلاطون الجامعة)، لقب لم يحصل عليه من فراغ، ولكن رسالته التي تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة، والتي نُشِرت عام ٢٠٠٢م. أثبتت قدرته التحليلية الفائقة على استنباط المعاني من الأشكال المجردة؛ حيث كان يهوي من صغره الأشكال الهندسية والعلوم الرياضية، التي أسماها أصل العلوم؛ فهي تتدخل في حياتنا بشكل مباشر وغير مباشر، لا بل اقتنع تمامًا أن حكمة الله في خلق الكون بمقدار اقتضت وجود معادلات رياضية لكل حركة دقيقة في الكون.. معادلة للتنفس وحركة الهواء في الشهيق والزفير، معادلة في حركة اليدين أثناء الكتابة، معادلة لنبضات قلبه برتمه المعتاد، ومعادلة لحركة قدميه وهو يمشي في ساحة الجامعة وأثناء صعود درجات المبنى الرئيسي، لذا لم يكن غريبًا عليه أن يعد خطواته أثناء الحركة متمتمًا بها ليسلي نفسه حتى الوصول لهدفه.

خطوة تتبعها الأخرى، يصعد درجات المبنى الرئيسي ليتحرك في الممر المؤدي لقاعة الدرس الرئيسية، ولم يُبْدِ أي تعجب من فراغ الممرات والطرقات بالجامعة من أي طالب؛ حيث يوافق اليوم السادس والعشرين من ديسمبر يوم أجازة الـ(البوكسينج داي) الرسمية، والتي بدأ التقيد بها منذ عام ١٨٧١م، والموافق لميلاد الدوري الإنجليزي لكرة القدم؛ حيث جاءت تسميته من كلمة Box أو صندوق، حيث يتبادل الناس الهدايا في هذا اليوم، إلا بحرم الجامعة التي قرر البروفيسور حازم أن ينادي في من أراد الاستماع له ومشاركته نقاشًا أن يأتي مبكرًا في هذا اليوم.

يهرول طالب ليمر بجانب البروفيسور، فيسبقه ويلتفت له مبتسمًا:

ـ "هيا بروفيسور.. سنتأخر عن المحاضرة"

يبتسم البروفيسور حازم ويرد:

ـ "أم نتأخر عن صناديق الهدايا؟؟"

ـ "سأحضر لك واحدًا"

يضحك الطالب ويدخل القاعة.. يبحث بعينيه سريعًا ليجد مكانًا يجلس فيه في الصف الثالث من القاعة التي امتلأ ربعها تقريبًا... يدخل البروفيسور وينظر للحضور:

ـ "صباح الخير"

ـ "صباح الخير بروفيسور"

يعلو صوت طالب مازحًا:

ـ "صباح الخير بروفيسور أفلاطون.. هل أحضرت لنا هدايا اليوم؟؟"

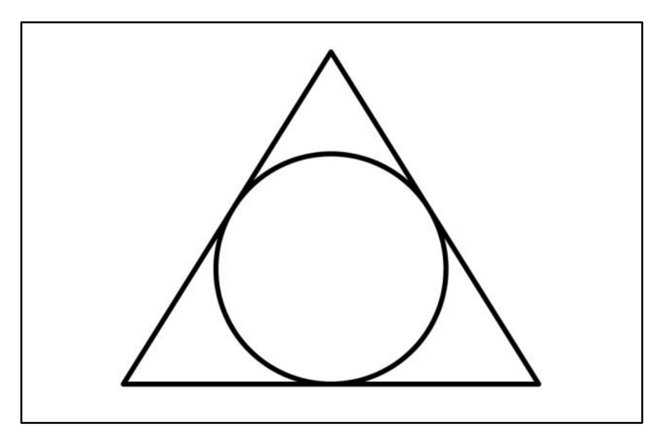
يرد البروفيسور ومازال محافظًا على ابتسامته الساحرة:

ـ "في الواقع نعم.. وقبل أن أخبركم بها سأفسر لكم لِمَ أحضرتكم اليوم"

ينظر الطلاب باهتمام، فيما يُكْمل حازم كلماته التي يرن صداها في أرجاء المكان:

ـ "أحببت أن يستمع لي من يرغب في المشاركة لتعلم شيء جديد فقط، لا من يريد الحفاظ على درجاته العلمية، والتي لا تمثل بالنسبة إليّ أي شيء.. أنا أفضل طالب العلم الحقيقي الذي يبحث عن العلم نفسه لا عن الدرجة العلمية.. وإلى من تحمل عناء الحضور في هذا اليوم ليستمتع معي بمناقشة واختبار شيء جديد أهْدي له هذه الهدية"

يستدير البروفيسور حازم ناحية لوحة الكتابة المعلقة بالخلف ويرسم شكل هندسي بسيط عبارة عن مثلث بداخله دائرة تمس أضلاعه الداخلية واستدار ليسأل الحاضرين:



ـ "هل يخبرني أحدكم ماذا يرى في هذا الرمز؟؟"

صمت من الطلاب، وبعضهم يهز رأسه بالنفي.

ـ "امممم.. هل التبس عليكم الأمر؟ هيا، يجب أن يمثل هذا لأحدكم شيئًا.. إنه يراه بداخله.. فليخبرني أحدكم ماذا يعني هذا الشكل له؟؟"

يرفع طالب في الصف الثاني يده.. ينظر له البروفيسور ويقول:

ـ "وأخيراَ كائن حي معنا الآن.. هيا أخبرني ما اسمك؟ وماذا ترى أمامك؟"

يرد الطالب وعلى وجهه ابتسامة صغيرة:

ـ "أنا ديفيد.. أراه مجرد مثلث وبداخله دائرة.. أراه شكلًا هندسيَا"

يضحك الطلاب على هذا الرد الساذج، وبدا كأنه مستهتر بالسؤال، فيما يرفع البروفيسور حازم حاجبه الأيمن وينظر مجددًا للّوحة خلفه ليرى الرمز.

ـ "نعم معك حق.. أظن أن الجميع يرى هذا أيضًا.. لمَ لم تخبرني أنك ترى اللوحة والحائط أيضًا!؟ اممممم.. سأسمع الجميع أولًا قبل أن أقول أي شيء.. هيا.. هل هناك أحد آخر يستطيع أن يرى أي شيء في هذا الشكل الهندسي؟؟"

ترفع يدها، فيسمح لها البروفيسور حازم بالإجابة:

ـ "أنا أرى أضلاع المثلث تُمثل لي أبي وأمي وأخي الكبير، وأنا بداخل الدائرة، مهما ذهبت سأجدهم حولي دائمًا يدفعون عني عقبات الحياة"

ـ "ربما ذلك.. هناك من يرى أن الرمز يُمثّل له العلاقات الأسرية.. هيا أسمعوني آرائكم"

ـ "أنا أرى فيه رمز الحياة. أجد بالمثلث سجن الحياة للإنسان، والدائرة هي الحدود التي يضعها الإنسان لنفسه ليحد من تفكيره وتصرفاته، والتي مهما توسعت لن تعبر أبدًا حد سجن الحياة المثلث، كما أن أقصى مساحة سيدركها الإنسان لن تشمل أبدًا كل معاني الحياة التي تمثل مساحة المثلث بالنسبة للدائرة"

ـ "رائع.. غيرهم؟ هل هناك أحد آخر؟؟"

يتحمس الطلاب ويرفع بعضهم يده.

ـ "هذه هي الروح المطلوبة.. نعم، قف أنت وأخبرني ماذا ترى؟"

يشير البروفيسور لطالب يجلس بالخلف، والذي يُمْسك بمكبر الصوت:

ـ "أرى في هذا الرمز دليلًا على غباء الإنسان وضيق تفكيره، وهروبه الدائم من المشكلات"

يتعجب البروفيسور حازم، ويرد منتبهًا لكلام الطالب:

ـ "ماذا تعني بكلامك؟"

ـ "أرى ببساطة أن المثلث كما أخبرنا زميلنا أنه يُمْثل الحياة في شكلها، والتي لم يستطع الإنسان أن يتعامل مع مشكلاتها التي يُعبِّر عنها المثلث بزواياه الحادة،

ولذا فضَّل الإنسان في النهاية أن يرسم لنفسه دائرة وهمية لا توجد بها أي زوايا حادة تتميز بها؛ دائرة ضيقة خالية من المشكلات أفضل من وجهة نظره من مثلث أوسع بزوايا حادة، ولم ينتبه للميزات الأخرى التي يتميز بها مثلثه الذي يهرب منه، وأهمها المساحة الأوسع"

ـ "أرى الحيرة في وجوه زملائك.. اختصر كلامك في جملة واحدة حتى نرى رأي صديق آخر"

ـ "أقصد أنها تُمثّل الهروب من واقع الحياة التي بها مشكلات لمكان آخر حتى لو كان أضيق، لمجرد شعور وهمي بالراحة"

ـ "امممممم.. ولربما نضيف على كلامك أنه يدل على أن لا أحد كامل؛ فبالرغم من أنك نظرت إلى الزاوية الحادة على أنها مشكلة، لم تر الجمال الداخلي في التناسق؛ حيث أن لكل زاوية حادة ضلع مستقيم، وهو ما يُعتبر بالنسبة لك ميزة.. لكل عيب ميزة تقابله بشكل متساو حتى لو لم ننتبه لذلك.. إنه العدل الإلهي... شكراً لك... هل هناك أحد آخر؟"

يُمْسك طالب مكبر الصوت ويقول بصوت عال تردد صداه في القاعة:

ـ "حان دورك يا بروفيسور.. أخبرنا رأيك أنت"

ـ "في الواقع قد أوافق أحدكم الرأي"

ـ "حسنًا أخبرنا من الفائز"

يضع البروفيسور حازم سبابته وإبهام يده اليمنى حول ذقنه مفكراً:

ـ "يبدو في النهاية أن لدينا هنا فائز"

يصمت الطلاب في انتظار معرفة إجابة السؤال المحير وإعلان الفائز.

ـ "قُمْ من فضلك يا ديفيد. إنه الفائز اليوم"

يلتفت الطلاب لبعضهم البعض ويبدؤون بالتهامس:

ـ "كيف ذلك!؟ إنه لم يقل أي شيء!!"

- "في الواقع قد لا تحتاج رؤيتنا للحقيقة كل هذا التوضيح والشرح المعقد.. يكفي فقط أن نرى الأشكال على حقيقتها.. وهذا ما فعله ديفيد، وأوافقه الرأي. ببساطة الحقيقة دائمًا واضحة جلية أمام أعيننا، ولكن لاكتشافها ورؤية وجهها الحقيقي يجب أن نُصْفي ذهننا من كل ما يحيط به من تشويش نتج عن ضغوط الحياة ومشكلاتها، وهذا ليس بالأمر السهل؛ فقد استغرقنا كل ذلك الوقت لنكتشف أن المثلث الذي بداخله دائرة هو فقط مثلث بداخلة دائرة، وبالرغم أن أحدنا هنا قد رأي هذه الحقيقة، فقد كان يكفيني أن أنظر لكلامه بسخرية حتى تشكُّوا جميعًا بصحة الحقيقة المطلقة، ليدخل عليها العامل النفسي، فيراها كل منا على طريقته"

ينزل على درج القاعة ليُمْسك بيد طالبته التي أجابت، ويُكْمل كلامه:

- "هنا صديقتنا.. ما اسمك؟"

- "مايا"

- "هنا صديقتنا مايا رأت أن مثلث ودائرة يعني العلاقة الأسرية.. إنها ما تُفْكر به وما يشغل حياتها.. وهناك يجلس صديقنا الذي ظل يُفسّر لنا حقيقة ما يُمثله لنا المثلث من سجن للحياة وتفكيرنا المحدود وغباء الإنسان، وفي الواقع كل واحد منّا رآه بمنظوره المختلف حسب هواه، وهذا لا ينفي كونه مجرد شكل هندسي لا يُمثل في الحقيقة أي شيء.. أنا فقط من قام بتأليفه الآن حتى لم أحضّر لذلك"

يرفع طالب يده ليقول بعد سماح البروفيسور حازم له بالكلام:

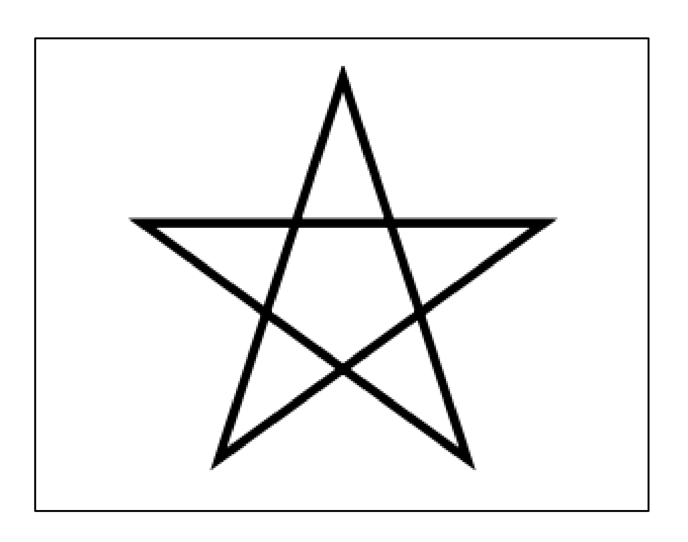
- "لكن ما تقوله بروفيسور يحمل مناقضة واضحة في معنى الرموز التي وضعها مثلًا القدماء للتعبير عن القوى الخفية أو الآلهة القديمة"

يرد البروفيسور حازم بثقة:

- "إذن كان من الأولى أن تنزل الكتب السماوية تحمل رموزًا وليست كلمات! وهذا لا ينفي أنها مجرد شكل هندسي لا معنى له في الأساس، وكل معانيه التي

حملها هي في الواقع مرآة لتعكس نفسية الشخص الذي يراه في هذا العصر.. ودعني أريك مثال لذلك.

يذهب البروفيسور حازم أمام اللوحة ويرسم النجمة الخماسية..



ـ "ما اسمك؟"

ـ "مايكل"

ـ "إذن يا مايكل أرجوك أخبرني ماذا ترى أمامك؟ وماذا يُمثّل لك ذلك؟"

يجيب مايكل بثقة:

ـ "إنه رمز من رموز الماسونية الشهيرة"

ـ "عن أي رمز تتحدث!؟ هل الماسونية فقط من استخدمت النجمة الخماسية!؟"

ـ "على حد علمي"

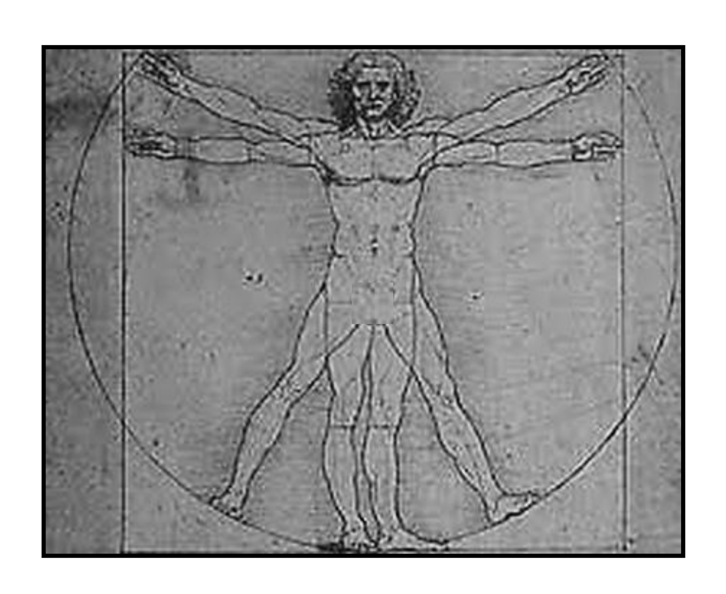
ـ "إذن ماذا عن شكل ليوناردو دافنشي الشهير للـ(رجل الفيتروفي)، والذي أصبح من رموز العمارة فنجده ظاهراً على الكتب المعمارية العالمية أمثال (نوفرت_Neufurt)؟؟ سأُرْيكم بعض الصور لتوضح لكم ذلك"

يبدأ البروفيسور حازم في تشغيل جهاز اللاب توب من نوع آبل الشهير، ويُكْمل كلامه فيما تُعْرض الصور على شاشة العرض الرئيسية:

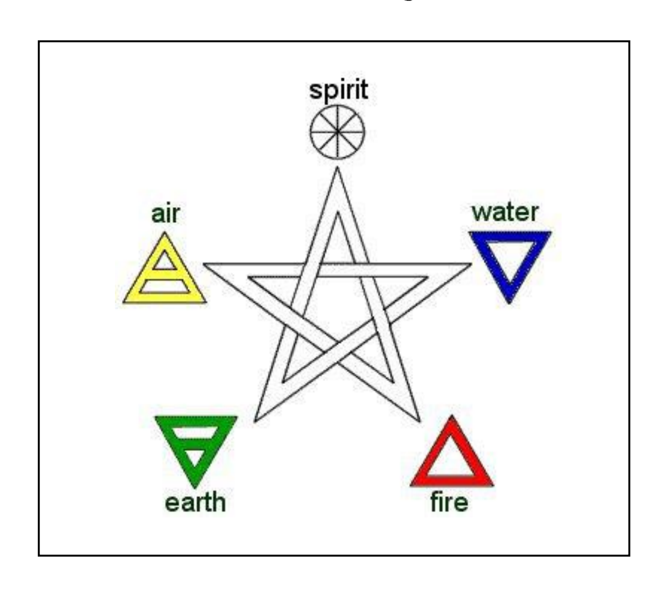
ـ "تقولون أن النجمة الخماسية هي رمز من رموز الماسونية.. إذًا إليكم الخبر الحزين الذي أتمنى أن يغير نظرتكم للأمور.... في الصورة التالية سنرى سوياً النجمة الخماسية والتي إذا وضعنا عليها رأس العنزة أصبحت رمزاً للشيطان"



"وهناك أخرى سنرى النجمة الخماسية فيها رمزاً للعمارة في الصورة المأخوذة من مذكرات ليوناردو دافنشي الشهيرة وهي للـ(رجل الفيتروفي)"



**"أم إنها تمثل الرمز الوثني لها، فترمز إلى الخمسة عناصر المكونة للطبيعة وهي: {الأرض، الهواء، الماء، النار، والروح}؟؟"**



"ويُقال أنها كانت على خاتم سليمان، لذا نجد لها علاقة ببعض أمور السحر والسحرة"

"رمز في اليهودية؛ حيث تشير إلى خمسة كتب أسفار موسى المقدسة"

"رمز في المسيحية؛ التي تشير إلى جروح المسيح الخمسة.. جرحان في المعصمين جرحان في الكاحلين والطعنة في الخصر"

"رمز أيضًا للجمال والحكمة!"

ينظر له الطلاب مذهولين، لا يستطع أحدهم أن يتكلم أو يُعْقب على البروفيسور، الذي أكمل موجهًا حديثه لمايكل، الذي ظن فجأة أنه كان جاهلًا بأشياء كثيرة تدور من حوله.

ـ "هيا يا مايكل.. أخبرني الآن أي رمز من رموز النجمة الخماسية تقصد؟؟"

لا يُجيب عليه أحد، فيُكمل البروفيسور حازم كلامه قائلًا:

ـ "في الواقع النجمة الخماسية هي مجرد رمز رياضي بحت لا علاقة له بأي كلام مما أشيع عنه.. لا يوجد لها قوة سحرية خاصة ولا يوجد لها أي مدلول ديني في أي كتاب مقدس.. لا هي تدل على الكمال ولا علاقة لها بنسب الجمال.. إنها تعتمد فقط على كيف نراها نحن... لذا أرجو من كل واحد منكم أن يبحث مجددًا في أفكاره عن الحقيقة الكامنة.. الحقيقة المجردة لا تحتاج سوى عينيك لتكتشف بها عالمك؛ فالحواس هي أول الطريق لاكتساب المعارف المجردة قبل أن نضيف لها العلاقات النفسية المعقدة بداخلنا؛ فـ(ديفيد) لم يحتج إلا إلى عينيه فقط ليدرك ماهية المثلث والدائرة". الحياة أبسط مما تكون ونعتقد، لذا فلا داع للتعقيد"

تصفيق حاد من الطلاب الذين بدأت تتشكل في رؤوسهم تساؤلات عديدة، قطعها صوت البروفيسور حازم:

ـ "لن أؤخركم عن الهدايا أكثر من ذلك.. استمتعوا بيومكم وثوروا على الأفكار التقليدية؛ ليتشكل لكم الوعي، كما قال (جورج أورويل) «لن يثوروا حتى يعوا.. ولن يعوا إلا بعد أن يثوروا». طاب يومكم يا أصدقائي... سأجْيب عن تساؤلاتكم في رسائل البريد الإلكتروني"

ـ "شكراً لك بروفيسور"

قالها أحد الطلاب المبتسمين بالمحاضرة، والفخورين بأنهم تحدوا الكسل النفسي في صباح يوم الإجازة الرسمية، لسماع البروفيسور حازم الشهير وهو يتكلم.

AFbcU

# (١١)

<<صوت هاتف يرن>>!

ـ "اللعنة! لقد نسي هاتفه مجددًا"

صوت أنثوي يتحدث لنفسه، قبل أن تخرج صاحبته من المطبخ في اتجاه الصالة المفتوحة عليه.

ـ "آلو.. من المتصل؟؟"

ـ "أليس هذا هاتف حازم!؟ من أنت!؟؟"

صوت خشن يتحدث بصعوبة وبتردد بعد سماع صوت أنثوي لم يكن يتوقعه.

ـ "أنا زوجته.. من أنت؟؟"

ـ "أين هو؟؟ أريد التحدث إليه"

ـ "في الواقع إنه في الجامعة الآن ونسي هاتفه بالمنزل.. من أنت؟؟ وماذا تريد؟؟ وأنا سأخبره أن يعاود الاتصال بك حينما يعود"

ـ "شكرًا لك.. أخبريه أن يتصل بأبيه"

ـ "ماذا!؟"

ـ "أنا أبوه.. اجعليه يتصل بي حين يعود"

يغلق الحاج عبد السلام وصفي الهاتف دون أن يستأذن، تاركًا هيام في حيرة من أمرها؛ إنها لأول مرة يتصل به منذ سافر ابنه إلى بريطانيا!

ـ "ماذا يريد منه الآن!؟؟"

تسأل نفسها بتعجب، وتعود إلى مملكتها الخاصة بالمطبخ لتُكْمل ما كانت تفعله قبل أن يعود حازم إلى المنزل.

AFbcU

# (١٢)

يُدْير البروفيسور حازم سيارته ويُفكر في ما قاله للتو في المحاضرة.

ـ "هل حقًا سيُغيِّر شيئًا من ثوابت التفكير؟ أو هل حتى ما قاله صحيح؟"

ـ "كل شيء في الحياة يحتمل الصواب والخطأ، وطالما أنه ليس من المسلمات؛ فالصواب والخطأ عملية نسبية"

هكذا رد عليه عقله الذي ذكَّره بمكالمة زوجته، يبحث عن الهاتف الذي لم يجده بالطبع.

ـ "ستغضب زوجتي الآن.. لقد نسيته مجددًا!"

يخرج بهدوء من جراج الجامعة ليتحرك في شوارع مدينة ليفربول العتيقة الجميلة؛ فهي ظلت وستظل في عينيه من أجمل مدن أوروبا التي زارها. ينعطف يسارًا ليذهب إلى (Bluecoat Display Centre) حيث سيشتري هدية زوجته كما عودها دائمًا في هذا الاحتفال السنوي. في الواقع قد وضع عينيه على الهدية منذ فترة وعاد إلى المركز بالأمس ليحجزها لها.. وها هو في طريقه الآن لاستلام تلك الهدية النفيسة التي لن تكتسب جمالها إلا بيد زوجته.. أو لعلها تُطْفئ غضبها من نسيانه لهاتفه المتكرر؛ حيث أن ذلك كان أكثر ما يزعجها منه.

يأخذ حازم الهدية ويعود لسيارته ويبدأ بالقيادة حتى يصل لمنزله القوطي الطراز.. كان يبدو كمنزل عتيق، لكن ذلك لم يكن يزعجه، بل اكتسب بطرازه هذا مكانًا في قلبه كما كان يهوى دائمًا.. الطراز القوطي الفيكتوري المثير، بتفاصيله الكثيرة والبهرجة المعقدة نسبة إلى الملكة فيكتوريا، الذي ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يترجل من السيارة ليفتح باب المنزل الرئيسي.. يدخل بالسيارة في الممر المخصص لها، لينزل منه ويبدأ في اتجاه باب المنزل.. على يساره يوجد حمام السباحة الخاص بالمنزل، بالتماثيل الأربع التي يندفع منها الماء باتجاه حمام السباحة في دورة لامتناهية طالما تتصل بها الكهرباء. صوت تصادم

المياه من التماثيل إلى حمام السباحة دائمًا ما كان يثير شجونه ومهدئًا لأعصابه. يفتح باب المنزل الزجاجي بهدوء؛ فلطالما فضَّل هذا المدخل عن المدخل الرئيسي من الشارع؛ لأنه أكثر هدوءًا أو أكثر رومانسية. نعم أحب منزله كحبه للحياة؛ فبدا دائمًا له مملكته الخاصة التي يتربع على عرشها مع ملكته (هيام).

يدخل المنزل ليقطع صوت التلفاز العالي خياله.. لم يبد أي مجهود لمعرفة أن زوجته تتابع برنامج الطبخ المفضل لها، والذي كان يعرض نوع جديد من الطعام الفرنسي.. زوجته أعطت للتلفاز والصالة ظهرها فلم تدرِ أنه هناك يتابعها وهي تُقْطع شرائح البصل.. كان يستمتع دائمًا بمراقبتها وهي في المطبخ؛ لأنها تكون على طبيعتها تمامًا فهي تفعل ما تحب.. كان يحب ذلك... أحب دموعها التي تتساقط أثناء تقطيعها لشرائح البصل، فاقترب منها حتى شعرت به عندما أحست بأنفاسه تلاحقها فابتسمت.

ـ "لماذا لم تخبرني أنك قادم؟؟"

ضحك؛ فقد علم أنها ستبدأ العراك المعتاد حول هاتفه.

ـ "يبدو أن أحدهم أخذ هاتفي.. لم أجده معي"

ـ "لا، يبدو أن أحدهم قد نسي هاتفه.. لقد وجدته معي"

ـ "لأترك لك من يراقبك في المطبخ بدلًا عني"

وبابتسامة سريعة يقترب قليلًا منها ويُمْسك بدمعتها المتساقطة من عينها اليسرى وأكمل كلامه متابعًا:

ـ "أنا هنا الآن بجانبك لأحْقق لك أمانيكِ.. لأحْيل لك دموعكِ الغالية ماسًا"

ويفتح يده التي أمسكت الدمعة والتي وضع بها الخاتم الألماسي الجديد الذي اشتراه هدية لزوجته، فلم تجبه إلا بابتسامة خفيفة وأدارت وجهها، فأمسك حازم يدها اليسرى ووضع الخاتم بإصبعها البنصر قبل الصغير.

ـ "كل عام وأنتِ بخير وسعادة وإشراق"

ـ "كل عام وأنت بخير... اذهب لتستريح قليلًا حتى أجْهز لنا الطعام"

ـ "ماذا سنأكل اليوم؟؟ رأيت البرنامج يعرض أكلًا فرنسيًا.. يبدو أننا سنأكل في باريس اليوم"

ـ "لا، في روما.. لقد جهزّت لنا أكلًا إيطاليًا اليوم"

ـ "أيًا يكن.. سأذهب لأستحم.. عن إذنك"

ـ "تفضل"

يتركها حازم ويصعد للدور العلوي.. يصعد أول خمس درجات ويسأل بصوت عال:

ـ "أين مصطفى؟؟ لم أره! هل هو في غرفته؟"

ـ "لا، إنه لم يعد بعد من النادي.. سيعود على العشاء اليوم"

لم يرد حازم، وأكمل طريقه ليصل إلى باب الحمام.. يفتح الباب ويدخل.. يفتح المياه الدافئة ويتركها تنساب عليه بهدوء، ليبدأ بتصفية ذهنه؛ فلطالما أحب أن يفصل بين انشغال عقله الدائم بالعمل وتخصيص وقت العائلة للعائلة.. لا تحب زوجته أن ينشغل عقله بأحد غيرهما طالما هو معهم"

يخرج من الحمام مرتديًا بيجامته.. ليذهب إلى صالة الطعام فيجد هيام تنتظره وقد أنهت إعداد المائدة.. يجول بعينيه في أصناف الطعام ليجد بها ما يفهمه، لكنه يجلس وقد عجز عن ذلك.. يتساءل في حيرة:

ـ "ما هذا؟؟"

تبتسم بنشوة الانتصار:

ـ "إنها (لازانيا) مع صدور الدجاج المتبلة بالبهارات (الفيتوتشيني) وشوربة البطاطس.. والحلو أعددت (التيراميسو)"

ينظر حازم للطعام بحيرة وينظر لها...

ـ "مكرونة وفراخ يعني"

ـ "آه"

ـ "سلمت يداك.. الطعام لذيذ جدًا أو أنا جائع جدًا.. لا أدري لكنه جميل"

ـ "شكرًا لك"

ترد وقد اعتادت دائمًا على لهجته بسخرية على الطعام.. وأكملت:

ـ "سأقوم بعمل كتاب عن الطبخ وأشهر الأكلات العالمية"

ـ "جيد جدًا.. لن أعاني وحيدًا بعد.. الآن سيشاركني رجال العالم"

ـ "شكرًا لك.. هل تظن فعلًا أن نساء العالم ستُطْبق ما به وسينتشر ويصبح مشهورًا؟؟"

ـ "نعم بالطبع.. طالما لا نتكلم نحن الرجال وأصبحت معدتنا فئران للتجارب، فما الضير من التجارب!؟"

يقولها ويضحك... لم ترد عليه حتى انتهى الطعام، فذهبت لمطبخها لتغسل الصحون الفارغة، فيما ذهب هو إلى مكتبه ليتفقد بريده الإلكتروني.. يطبع الرقم السري ويدخل، ليرى أن هناك خمس رسائل إليكتروني، فيفتح الأولى، ولم يكد يبدأ بقراءتها حتى دخلت عليه زوجته حاملة معها كوب الإسبريسو الشهير.

ـ "نعم أنا في نعمة.. كل يوم أكون في بلدة مختلفة"

تبتسم له وتتركه ليتابع عمله.. تفتح الباب لتخرج، لكنها تتوقف وعادت إليه مجددًا.. لقد تذكرت شيئًا.. فيترك الرسالة التي لم يقرأها بعد وينظر لها.

ـ "هيا.. هاتِ ما عندك.. أنا أعلم هذه النظرة.. يبدو أني لن أقرأ هذا البريد اليوم"

ـ "هل تفقدت هاتفك؟"

ـ "لا.. أنتِ تعلمين دائمًا أني أنسى ذلك.. ما به؟؟"

ـ "جاءتك مكالمة اليوم"

ـ "وما الجديد في ذلك!؟ لذا تم اختراعه وتصنيعه من البداية"

ـ "من أبيك"

تجهم وجهه ولم يرد.. فكر قليلًا ثم سأل:

ـ "متى؟؟"

ـ "قبل أن تأتي للمنزل بقليل.. ولكني نسيت أن أخْبرك.. لم أتذكر إلا الآن.. آسفة"

ـ "لا عليكِ.. سأنهي بريدي الإلكتروني وأعاود الاتصال به"

ـ "هل نظرت إلى درج المكتب؟؟"

ـ "لا، ما به هو الآخر؟؟"

ـ "افتحه وانظر"

وذهبت لتخرج وتتركه فناداها.

ـ "تعالي هنا.. سنفتح الدرج سويًا لنرى ما فيه.. لن أنظر وحدي"

ـ "اممم.. لا تخف"

ـ "لا.. أخاف"

تقترب من المكتب، ويفتح حازم الدرج ليُخْرج كتابًا سميكًا بجلد أسود ومكتوب عليه من الخارج بكتابة مذهبة (محاورة ديكارت: البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي).

يصيح فرحًا:

ـ "يا الله! أخيرًا أمسك بين يدي سيمفونية ديكارت التي لم تكتمل!! أين وجدتي هذه النسخة النادرة!؟؟"

ـ "من محل Reid Of Liverpool"

ـ "ماذا!؟ لقد بحثت هناك ولم أجد شيئًا!!"

ـ "إنها مهارات المرأة في التسوق"

ـ "أشكرك جدًا جدًا جدًا.. كنت سأموت لو لم أجد هذه النسخة النادرة"

ـ "كل عام وأنت بخير وسعادة وإشراق"

يبتسم:

ـ "كل عام وأنتِ بخير"

تخرج هيام بعد أن طبعت قبلة على خده، لتتركه مع فرحته بالكتاب التي حاول أن يتماسك بعدها لُيْكمل قراءة بريده الإلكتروني ويرد عليه.

* بروفيسور حازم

كنتُ سعيدة جدًا بحضوري محاضرة اليوم.. لقد استمتعت حقًا وأرى أن هناك فرصة لأعيد ترتيبي للأمور التي أراها مسلمات في حياتي، ولكن هناك كلمات نطقتَ بها جعلت عندي التباسًا في الأمر، وهو كيف حدث هذا من الأصل؟ كيف وصلت إلينا معارف على إنها مسلمات وقد تكون خاطئة إذا كانت الحقيقة واضحة للعين أمامنا!؟

ابنتك/ سارة

ابتسم حازم قليلًا حين غمرته السعادة أن هناك من اهتم بالأمر وبدأ يُفْكر بمحاضرته.. فكَّر قليلًا قبل أن يطبع كلمات رده على الرسالة الإلكترونية.

* عزيزتي سارة..

لا أستطيع أن أصف لكِ مدى سعادتي عندما علمت أن هناك من تركت كلماتي التي ألقيتها أثرًا فيه.. حتى لو أثَّرت بالسلب وكنتِ ضدي في الرأي فيكفيني شرفًا أنك فكَّرتِ بها؛ التفكير بداية الوصول للحقيقة. وفي الواقع سأجيب عليكِ بمثال بسيط: اللص يعلم أن السرقة معصية وخطأ كبير، ومع ذلك نجد السجن يخلو

من أي لص دخل بعملية واحدة، ولكنها عمليات متكررة متوالية؛ فببساطة حين يبدأ العقل على اكتساب معرفة ما، في أول الأمر تكون دخيلة عليه فيهابها، والمرة الثانية يبدأ بالتأقلم معها على أنها واقع ملموس عادي أن يحدث لا ضرر في ذلك، حتى يصل الأمر لقلبه فتصبح حركات لاإرادية لا يستطع أن يتحكم بها، إلا من يبدأ بالشك، كما فعل ديكارت، حيث الشك في كل شيء من حولنا حتى أن نشك بمسلماتنا، فليس بالضرورة أن كل المسلمات صحيحة، فقد تكون ببساطة مسلمات خاطئة، ولكن عقلنا نقلها للقلب حتى أصبحت سائغة يستحيل الشك فيها.

أتمنى أن أكون قد أفدتك واستطعتُ الإجابة عن استفسارك.

حازم وصفي

يضغط البروفيسور حازم زر الإرسال، ويفتح الرسالة البريدية الثانية ويبدأ بالقراءة..

* بروفيسور حازم وصفي..

سيدي، قد رأيت بعد المحاضرة أن أسألك سؤالًا قد يُفْسر عندي الكثير مما قلته؛ خصوصًا وأنا أعلم أن ديكارت ومنهجيته في الشك هو مثلك الأعلى، ولكنك اليوم نقدته حين قلت أن وسيلة المعرفة هي الحواس، وديكارت قد نفى ذلك.. فما ردك؟

ديفيد

يفكر حازم قليلًا قبل أن يرد..

* عزيزي ديفيد

أعجبني تساؤلك جدًا وأثار عندي بعض الكلمات التي كان لابد من توضيحها في المحاضرة قليلًا.. أنت لم تع بعد ما قلت.. قلتً أن بداية المعرفة هي الحواس؛ فببساطة هي وسيلة اتصالنا بالعالم الخارجي، ولم أقل أنها وسيلة المعرفة.. إنها

مجرد البداية؛ فعود الكبريت هو ما يحترق لكن بدايته كانت في الشرر المتطاير؛ فلولا الشرارة الأولى لما احترق العود ذاتياً. ديكارت نفى أن تكون الحواس وسيلة المعرفة الرئيسية؛ لأنها خدَّاعة، ولكنه أكَّد على أن وسيلة المعرفة الحقيقية تكمن بداخلنا، وأضْيف أنا أنه لولا التكامل بين وسيلة الاتصال الخارجية والمعرفة الكامنة بداخلنا لما تحققت أي معرفة على الإطلاق؛ فلا يجوز أن أقول أن (المحرك) هو ما يحرك السيارة، أو أنها تمشي على عجلاتها؛ فلا يعوض أحدهما غياب الآخر؛ فأنت قبل أن تدرك ماهية الشيء الذي أمامك، تراه أولًا؛ فيستحيل علي أي أحد منا أن يدرك ماهية شيء قبل أن يدركه بحواسه، وهكذا تعمل الآلة البشرية.. وقال في هذا الدكتور العالم مصطفى محمود "حينما تبدأ بتكذيب حواسك فقد بدأت قصة تعبك".

أتمنى أن تكون وعيتَ مقصدي.. شكرًا لك.

حازم وصفي

يضغط البروفيسور حازم زر الإرسال.. وبعد أن اطمأن على أن الرسالة تم إرسالها بنجاح، قرر ألا يفتح الرسالة الثالثة إلا بعد أن يطمأن على أبيه؛ فبالرغم من أنه لم يكلمه عندما غادر البلدة وسافر أبدًا ولو مرة واحدة، فذلك شيء لا يبشر بالخير؛ فلا يتغير الانسان بين ليلة وضحاها إلا حينما يكون في وضع حرج أو عند لقاء الموت.. نعم قاعدة مسلم بها جعلت قشعريرة تسري في مؤخرة رقبة حازم، فقام من مجلسه وتحرك ناحية هاتفه.. يبحث عن رقم المتصل.. ويبدأ الاتصال

ـ "السلام عليكم"

يرد المتصل بصوت مريض يملأه القلق وكأنه يهاب الموقف.. فيرد عليه حازم بشوق واستفسار:

ـ "أبي.. كيف حالك؟؟"

AFbcU

# (١٣)

يفتح مصطفى الباب ويخطو بقدمه اليمنى داخل المنزل ويصيح:

ـ "أبي.. أمي.. لقد عدت.. أين أنتم؟؟"

يدخل الصالة المخصصة للمعيشة، ليجد أمه تجلس على الأريكة وتنظر له.. كاد أن يقول لها شيئًا لكنها أشارت له أن يصمت حتى ينتهي أبوه من محادثة الهاتف.

ـ "لا، لم يحدث ذلك"

يتحدث في الهاتف، ويحرك رأسه بالنفي، ثم يُكمل:

ـ "إن كان هذا كل شيء فأنا لا أوافقك الرأي.. انتظر حتى أراك ونتكلم في الموضوع على راحتنا.. التحدث في الهاتف لا يجدي نفعًا"

لاحت منه التفاتة نحو زوجته وهو يتابع:

ـ "لا.. قلت لك مستحيل أن أفعل ذلك.. إن كان سيرضى هو فهنيئًا له الباطل، أما أنا فيستحيل أن أقوم بذلك"

ـ "دعنا من هذا الآن.. سأعود إلى البلدة ونتحدث من جديد.. أما زالت كما هي على حالتها؟"

يضحك حازم ويرد:

ـ "نعم أعلم ذلك.. لن يتغير شيء مهما امتدت به الزمن.. حسنًا إلى اللقاء حتى أراك"

ـ "بإذن الله.. مع السلامة"

يغلق الهاتف، وتنظر له زوجته تريد الاستفسار.. لكنه راوغ ونظر لمصطفى:

ـ "هيا أخبرني، كيف كان يومك؟"

ـ "على خير حال.. مع من كنت تتحدث؟"

ينظر لهيام ويعيد النظر لولده ليجيبه:

ـ "كنت أتحدث مع جدك.. أبي.. إنه مريض جدًا ويريد رؤيتي في أمر هام.. سأذهب لأزوره"

ـ "أريد أن آتي معك.. أرجوك"

تصرخ هيام فيه بغضب وعصبية:

ـ "مصطفى! اصعد إلى غرفتك الآن!"

يضع مصطفى وجهه في الأرض ويذهب لغرفته. انتظرت هيام حتى أغلق مصطفى عليه باب غرفته، ونظرت لحازم طالبة منه استفسارًا على ما يحدث من حولها.

ـ "أولًا: لا تصرخي في وجه مصطفى ثانية... إنه حزين الآن ولا ذنب له فيما يجري"

ردت هيام باستنكار وكأنها تستهجن لهجته:

ـ "وثانيًا؟؟"

ـ "ثانيًا: يجب أن أعود للبلدة.. أبي مريض جدًا ويُخْبرني أنه يريد رؤيتي قبل أن يموت وأشياء من هذا القبيل.. أخبار تقلق"

تبتسم هيام بسخرية:

ـ "ضيّعك صغيرًا ويبحث عنك الآن.. ماذا يريد منك؟ هل يريد التوبة على كبره!؟"

ـ "هيام من فضلك! لا داعي للسخرية.. إنه أبي ومهما فعل فسيظل كذلك.. وأنا أفتخر به؛ فلولاه لما كنت أنا على ما أنا عليه ولا كنتِ أنت نفسك الآن معي.. من فضلك لا داعي لهذا الكلام الآن"

اصطدمت هيام بحدة حازم، فقررت أن تتراجع عن موقفها؛ لأنها تعلم عناد زوجها وأنها لن تستطيع مجاراته في أي مناقشة، فسألته:

- "وماذا يريد منك الآن؟"

- "أخبرتك أنه يريد رؤيتي"

- "حسنًا.. متى؟ أنت لديك عملك"

- "ما رأيك أن نأخذ جميعًا إجازة ونُرّفه عن أنفسنا قليلًا؟"

- "ماذا!؟"

تتعجب هيام، فيما يكمل حازم حديثه:

- "نعم أنا وأنتِ ومصطفى.. ثلاثتنا فقط.. سأذهب لزيارة سريعة له وأنتِ لا يهم إن كنتِ لا تريدين الذهاب؛ تستطيعين أن تنتظريني في شقتنا بالقاهرة.. ما رأيك؟"

- "لا.. لن أستطع ذلك.. تستطع الذهاب وحدك"

- "ومصطفى؟"

- "ما به؟"

يرد حازم محاولًا أن يستعطفها:

- "جده يريد رؤيته.. إنه حفيده، وله الحق في ذلك"

- "إنه ماذا!؟"

ترد هيام بعصبية وتُكْمل حديثها:

- "لو رآه في الشارع لما عرفه.. إنه لم يره مُنذ وُلِد! ما هذا الحنان المفاجئ!؟ إنها لا تباع ولا تشترى يا حازم، فاترك ذلك الكلام وراء ظهرك.. إن كنت تريد الذهاب فاذهب وحدك ونحن سننتظرك هنا على شوق.. ثم هل تظن لو كان أخوك قد أنجب له حفيدًا لتقر به عينه سيسال عن ولدك؟ أنا لا أعلم أبدًا لماذا أنت رخو

لهذه الدرجة مع أبيك، مع أنه من المفترض أن تكون أكثرنا وعيًا! هل تعلم أني أحيانًا أشعر أنك مغيب ذهنيًا!؟ هذا الذهن المتقد دومًا يحاور ويناقش أراه متجمدًا في هذا الموضوع بالتحديد ولا أعلم السبب.. صدقني لا أعلم سوى شيئًا واحدًا.. سيدفعنا هذا التراخي نحو حافة الهلاك يومًا ما؛ فأنا لا آمن جانبهم أبدًا"

ـ "دعي هذا الأمر الآن.. دعيه يمر وحده؛ فلا يدري أحد ما يُخبئ له قدره.. ما بين طرفة عين وانتباهتها، يبدل الله من حال إلى حال"

تتركه هيام دون أن تنطق بكلمة، فيما يعود هو بحسرة على ما يحدث لمكتبه، ليرد على باقي الرسائل الإلكترونية، ويبدأ بقراءة الكتاب الجديد الذي لطالما طال انتظاره له وبحثه عنه.

AFbcU

## (١٤)

* بروفيسور حازم..

عزيزي..

أود أن أهنئك على تقدمك في المجال يومًا بعد يوم، وأنت أهل لها، ولذا سأختصر الوقت عليك؛ لأن وقت العلماء ليس ملك أيديهم. كيف أصبحت حكيمًا مع صغر سنك!؟ لقد حطمتَ فكرتي الصغيرة التي تؤمن بأن الخبرة تأتي مع تجارب الحياة العمرية، ولذا كلما كان الإنسان أكثر في السن كان الأكثر حكمة.

مع تحياتي..

إيمي

ابتسم حازم ابتسامة المُنتشي، وأغمض عينيه للحظة كأنه يُرّضي غروره بكلمات إيمي التي شبهته بالعلماء. لقد كان وقع الكلمات عليه عظيمًا، فجعله يُفْكر أكثر قبل أن يقوم بالرد عليها.

* عزيزتي إيمي

لمست كلمات رسالتك قلبي، فأنارت لي طريقًا لا أدري بعد إلى أين سيذهب بي.. قد يزيدني حكمة وقد يُضْيف إليّ غرورًا.. شبهتِني بالعلماء ولكن مازلت لا أرى نفسي كذلك، وأدعو الله ألا أراها أبدًا على تلك الشاكلة؛ فلقد سمعت قول جبران خليل جبران "يظل العالِم عالمًا ما تعلَّم.. فإذا قال علمت فقد جهل". تخبريني بأني أصبحت حكيمًا مع صغر سني، وهذا تناقض واضح لفكرتك الرئيسية، والتي هي حقًا من الأفكار التي أؤيدها بشدة، حيث كلما مر على الإنسان العمر زادت تجاربه، فتزيد خبراته، وهنا تكمن الحكمة، وإلا فلِمَ كان القدماء يُبجلون كبار السن ويعتبرونهم رأس كل قرار!؟ وإن لم يكن كذلك لِمَ احترم الجُبير كلمات الحارث بن عباد حين أرسله لمذبحه!؟ ولكن يبقى السؤال الحقيقي عن كيفية

حساب العمر.. هناك مثل فرنسي شائع يقول "عمر الرجل كما يشعر.. وعمر المرأة كما تبدو"، وبغض النظر عن عمر المرأة حتى لا ندخل في نقاشات غير مجدية، لكن عمر الرجل يُحْسب بشعوره، وتكمن الفكرة في أن تحافظ عليه وأن تشعر بكل ثانية تمر بها وتستغلها، وتستعين بها على الثانية القادمة، وإلا سُرِق منك "أتدري كيف يُسّرق عمر المرء منه؟ يذهل عن يومه في ارتقاب غده، ولا يزال كذلك حتي ينقضي أجله، ويده صِفر من أي خير" محمد الغزالي. وقال أحمد خالد توفيق: "اليوم هو أول يوم فيما بقي لي من العمر.. حكمة شكسبيرية عبقرية". نعم هكذا أنظر للعمر؛ فهناك اختلاف كبير بين العمر والسن إن كنتِ تفهمين مقصدي. أما مصدر الحكمة فهو نسبي؛ فلدينا مقولة الشاعر المصري عبد الرحمن الأبنودي "أحلى ما في الفرحة بتنسي الكبير سنه، وأحلى ما في الحزن كل الحكمة تيجي منه".. نعم هكذا أراها.. الحزن عندي هو موطن الإلهام الذي لا يحتاج في الواقع إلا بعض التحفيز لتنطلق منه الكلمات التي يسميها البعض منا بالحكمة.. لقد اختبرتُ صغيراً كل الحزن اللازم، لذلك الإلهام جعل كل طموحي في الحياة أن أهرب منه، فلا أعلم خير منه معلمًا في الحياة.

أنا حزين..

حازم وصفي

يضغط حازم زر الإرسال، ليفتح الرسالة القادمة بملل.

ـ "هذه فقط وسأذهب لأنام.. لدي يوم شاق غدًا"

* بروفيسور حازم وصفي

نُذكر سيادتكم بموعد الندوة العلمية، والتي ستُلْقي بها كلمتك الافتتاحية عشية رأس السنة.

شكراً لكم.

آدم

ـ "جيد جدًا أنك ذكرتني"

قالها حازم في نفسه وظل يُفْكر قليلًا.. بقيت رسالة واحدة.

ـ "هيا سأقرأها وانتهى الأمر"

يفتح الرسالة فيجد أنها لا شيء؛ مجرد إعلان من إعلانات الساعات السخيفة التي يكرهها.

ـ "إذا أردت أن أشتري ساعة يد فسأذهب لمحل الساعات، لن أشتري من تلك المواقع.. ليتهم يفهمون!"

همَّ أن يُغْلق حاسوبه فتفاجأ بوصول رسالة أخرى.

ـ "ما هذا!؟ يبدو أن هناك من يُراقبني ليمنع عيني النوم!"

يفتح الرسالة ويبدأ بالقراءة...

| * بروفيسور حازم..<br>لقد أحزنت قلبي عندما أخبرتني أنك حزين. كيف تكون حزينًا وأنت غني معك مال تشتري به ما تريد، تخرج وتلهو حيثما تكون.. أين يكمن حزنك؟<br>إيمي |
|---|

يرد حازم:

| * عزيزتي إيمي..<br>شكرًا لشعورك الطيب نحوي.. ولكن عزيزتي، المال لا يمحو الخطايا، وجرح القلب لا يداويه طبيب.<br>حازم وصفي |
|---|

يضغط زر الإرسال ويُغْلق حاسوبه بسرعة قبل أن تقع عيناه على شيء آخر.. يخرج من مكتبه بهدوء ويُغْلق خلفه الباب. كان يعلم أن هيام ومصطفى نائمين فلم يُرد إزعاجهما. يصعد درجات الدور الثاني بهدوء، ويفتح باب غرفة

مصطفى.. إنه نائم وعلى صدره كتاب كان يقرأ فيه قبل النوم.. ابتسم حازم وقبّله من رأسه وسحب عليه الغطاء.. أخذ الكتاب وقرأ.

"رحلات السندباد السبع.. ألف ليلة وليلة"

يبتسم حازم؛ حيث تذكر أول مرة قرأ فيها سلسلة ألف ليلة وليلة، حتى أخرجه صوت رقيق من خياله:

ـ "من شابه أباه فما ظلم"

يضحك حازم ويخرج بهدوء من الغرفة ليَغْلق خلفه الباب وينظر لزوجته.

ـ "ماذا تفعلين في هذا الوقت؟؟"

ـ "تعال معي.. سأعد لك كوبًا من القهوة ونتحدث قليلًا"

بملل بدأ حازم يتحرك معها، وهو يعلم عن ماذا ستحدثه وماذا ستقول، ويعلم كيف سيرد، وكيف ستتقبل هي رده. يبدو أنها محادثة ستُعاد للمرة الثانية، وهو يريد النوم!

AFbcU

# (١٥)

حازم جالسًا على الأريكة وظهره للمطبخ المفتوح على صالة المعيشة، تاركًا هيام تُعْد القهوة (الإسبريسو) التي تُجْيد إعدادها.. يُمْسك بـ(ريموت) التلفاز ويضغط على زر التشغيل.. لم تُعْجبه كالعادة قناة برامج الطبخ التي تتابعها زوجته دومًا.

ـ "كم أكره هذه القناة!"

يحُدْث نفسه قبل أن يضغط زر التحكم ليأتي بقناة أخرى كانت تعرض فيلمًا من أفلام (هوليوود) الجديدة، والتي كانت تثير دائمًا اهتماماته الشخصية، حين يندمج مع الفيلم ويتمنى دومًا أن يكون بداخل الأحداث؛ فدائمًا ما يحسد بطل الفيلم على أدائه. تدخل زوجته وتعطيه كوب القهوة وتُغْلق التلفاز.

ـ "لماذا!؟"

قالها حازم وهو يُدْير رأسه لزوجته بعد أن تذوق رشفة من القهوة.

ـ "نريد أن نتحدث"

ـ "عن ماذا؟"

ـ "أنت تعلم.. دائمًا ما تعلم.. هيا فلتخبرني الآن كل ما أريد معرفته منك"

ـ "تقصدين لم أريد العودة للقرية؟"

ـ "نعم"

أومأت برأسها موافقة، وتذوقت قهوتها حتى يساعدها الكافيين على الانتباه جيدًا.

ـ "لقد أخبرتك من قبل.. إنه أبي ومن حقه عليّ أن أعطيه اهتمامي.. إنه طلب صغير أن يراني.. هل سأحرمه من هذا!؟"

ـ "لا لم أقصد ذلك.. أقصد لِمَ تذكرك الآن!؟ صدقني حين أخْبرك بأن الحنان لا يأتي من يوم وليلة.. إنه صنعة كسائر الحرف.. يجب أن تُمارسها دومًا وإلا ستنساها"

ـ "الحنان حرفة!؟ إذا غبتُ عنك لفترة ستفقدين اهتمامك بي وحنوك علي!؟"

ـ "لم أقصد ذلك.. أنت شيء آخر"

ـ "لا سيدتي، المبادئ لا تتجزأ.. وأنا أرى دومًا بأن الحنان هبة يهبها الله لمن يشاء من عباده، موطنها القلب مهما قاومتها العقول"

ـ "لا تتفلسف عليّ الآن.. أنت تعلم جيدًا ما أقصد"

ـ "أولًا: علمتني الفلسفة ألا أتفلسف.. ثم ماذا تعنين؟"

ترد هيام بسرعة حتى لا يُفْقدها حازم صوابها بالحديث في هذا الموضوع كما كان يفعل دومًا حين يريد الهروب من الكلام معها:

ـ "لا يستطيع الحرفي أن يعود لحرفته التي لم يمارسها جيدًا حتى لو كان متقنها من قبل.. يحتاج الأمر لفترة؛ فلا يستطع بأي حال من الأحوال أن يعود إليها بين ليلة وضحاها"

قاطعها مجددًا:

ـ "لكنه يعود في النهاية"

ترد هيام بتردد:

ـ "نعم قد يعود، لكن بعد فترة من الوقت"

ـ "جيد جدًا.. يبدو أنك توافقيني الرأي"

ـ "أي رأي تقصد!؟"

ـ "أن لكل شيء مرة أولى؛ لولاها لما أتقن الحرفي صنعته ولا عاد إليها.. جميعنا نحتاج لتلك المرة الأولى.. أنا وأنت وابننا.. الجميع يريد ذلك.. ولكن يبقى السؤال هنا: (هل ستكون لديك الجرأة لتطلب تلك الفرصة؟)"

ـ "إذن هل ستعطيه الفرصة؟"

ـ "بالطبع.. إنه أبي"

ـ "كيف تنسى ما فعله بك!؟ ألم يكن هو من طردك من قريتك!؟ ألم يكن هو من غضب عليك لسفرك في طلب العلم!؟"

ـ "كيف أنسى ذلك!!؟ لولا غضبه علي وعنادي معه لما تقابلنا.. ولم يكن لزواجنا أن يتم.. وبالطبع لم يكن لدينا مصطفى.... صدقيني، إن لكل شيء في الحياة سبب نغضب منه فقط عندما ننظر تحت أقدامنا"

تتجاهل هيام كلامه وتُكْمل ما كانت تقوله:

ـ "ألم يكن هو من رفض زواجنا!؟ حتى أنه لم يُبّارك لنا.. لم يَقُلْها لي عندما حدثني اليوم"

ـ "وهل تنتظرينها منه!؟"

ـ "لا، ولكنها الأصول"

ـ "أبي لا يعرف إلا أصول بلدته التي نقضتها معه حين تركته ونزلت القاهرة لطلب العلم"

ـ "وهل هناك من يغضب لأن ابنه يريد التعلم!؟ هل يغضب لأنك صرت أفضل من في البلدة!؟"

ـ "نعم يغضب.. هذا أبي، وقد تعودت منه على ذلك منذ يوم ولادتي"

ـ "كيف تقول هذا!؟ كيف يتعود المرء على غضب أبويه عليه بسبب أو بدون سبب!؟"

ـ "إذن فمن أين تأتي الطاعة!؟ إن أطعت أحد على ما وافق هواي حينها ستفقد الطاعة معناها الأسمى"

ـ "لماذا إذن لم تطعه في أمر زواجنا!؟"

ـ "ألن نكف عن هذا الحديث أبدًا!؟ ألا يكفيكِ أني معك الآن!؟"

ـ "نعم لن نكف عن الحديث حتى تجيبني عن سؤالي.. دائمًا ما تتهرب من الجواب وتتركني وحيدة.. وهذه المرة بالذات لن أسمح بذلك.. يجب عليّ أن أعرف قبل أن تأخذ قرارك الذي أعلمه بالفعل.. هيا أجبني الآن"

يُغْمض عينيه ويتنهد بشدة تعبيراَ عما لحقه من ملل وغضب:

ـ "حسنًا إن كان هذا سينهي هذا النقاش العنيد"

ـ "نعم سينهي هذا النقاش للأبد.. لكن من حقي أن أعلم لِمَ كل هذا الغضب"

ـ "حسنًا سأخبرك بكل شيء؛ عسى أن تتركيني لأهنأ بالنوم قليلًا حتى لو على هذه الأريكة"

يتنهد حازم ويمسح بيده اليسرى شعره.. ينفخ زفيره بشدة ويشرب ما تبقى من قهوته، ويبدأ بالحديث:

ـ "سأحكي لكِ كيف بدأ معي الأمر.. أو بمعنى آخر ما حكاه عبد الصمد لي"

ـ "حسنًا"

AFbcU

# (١٦)

تنصت هيام باهتمام لحديث حازم، الذي أخفاه عمدًا عنها كل تلك الفترة الماضية. إنها لحظتها المناسبة الآن التي طال انتظارها ولم تكن تعلم أنها تُمزق قلبه وهو يحكي عن ماضيه.. لم تُعْطِ اهتمامه إلا لرغبتها المُلحة في الاستماع للماضي فقط.. فأغمض حازم عينه قليلًا، ثم نظر مباشرة في عيني هيام وقال لها:

ـ "كنت أجلس على شاطئ ترعتنا في القرية دائمًا أمارس هوايتي بالصيد.. لم أكن في الواقع أصطاد سمكًا كبيرًا، بل فقط مجرد بعض الأسماك الصغيرة التي لا تصلح لأي شيء، حتى أني كنت أدعها تعود للمياه لتعيش.. بالنسبة لي كان ذلك مجرد هروب من العيش المر في القرية.. من نظرة أبي إليّ وكأنني أجرمت؛ ففي صباح ذلك اليوم قد ضربني بشدة عندما دفعتُ أخي من على السلالم فكُسرت قدمه اليمنى، وأخبرنا طبيب القرية أنه بخير وسيشفى لكن قد يُصْبح أعرج قليلًا. بكيت ولم أكن أعلم أأبكي على أخي؟ أم شعوري بالذنب تجاهه؟ لم أكن أعلم أنه لن يُقارن أبدًا بما فعله أبي بي.. كم كان يكرهني ذلك العجوز!"

نظرت له هيام بتأثر:

ـ "لا يوجد أب يكره ابنه... قد يكون غضب قليلًا على ابنه الآخر"

ـ "أنت لا تعلمين شيئًا.. إنه يكرهني منذ رآني يوم ولادتي.... حسنًا، المهم حين فعل ما فعله بي ذهبت إلى الترعة هربًا من المنزل وبحثًا عن بعض الراحة النفسية، فتبعني (عبد الصمد)، ووجدته جالسًا بجانبي وقال لي:

ـ "ماذا تفعل يا حازم؟"

نظرت له متعجبًا وأخبرته:

ـ "كما ترى.. أنا أصطاد"

ـ "أنا أرى بعيني ذلك، بل أسألك عما يُخْفيه قلبك.. ماذا تفعل؟"

لقد علمت دائمًا ما أشعر به، وماذا أفعل، ولكن لم أكن أتصور أن أحدهم يشعر بي، فأخبرته:

ـ "أنت ترى كيف يعاملني.. وكأني لست بولده. أنا لا أعلم ما السبب وأي ذنب اقترفته حتى يملأ قلبه كل ذلك الكره.. لا بل ويورثه لأخي الكبير!!"

ـ "قلب أبيك حزين يا حازم"

قالها لي عبد الصمد، ونظر إلى الدوائر في الماء التي نتجت عن إلقائه حجراً، فبدا كأنه يُصْفِّي ذهنه بمنظر الأمواج والدوائر المتلاحقة.. رددت عليه مستفسراَ؛ فدوما ما كنت أبحث عن الإجابة:

ـ "ما سبب حزنه!؟ ماذا فعلت!؟"

ـ "مع الأسف أنت لم تفعل شيئًا يا حازم.. لكنه القدر، دائمًا ما يفعل بنا ما يفعل وينتظر متنبهًا ليرى كيف سنحتمل هذه الضربات.. مِنَّا من ينهار والبعض الآخر يحتمل ويزداد صلابة"

ـ "وكيف برجل مثلك يعلم هذا!؟ أنت تعمل عنده منذ رأتك عيناي"

ـ "لا يا صغيري، بل ربّانا نفس الشخص كما ربيتك أنت وأخوك، فأعلم عنه ما لم يعرفه عن نفسه.. معه منذ كنَّا نزحف على كفوف أيدينا"

ـ "ما سبب كرهه لي؟؟"

سألته بعصبية فرد بهدوء كعادته:

ـ "حسنًا، أظن حقًّا أنك كبير كفاية لتعلم حقيقة ما حدث. كانت ليلة شديدة البرودة.. لكن لم أشعر بها بالبرد؛ فقد كان صوت الصراخ يملأ البيت.. امرأة مسكينة جاءها المخاض في قرية ملعونة تدنت بها كل وسائل الرعاية الطبية.. كان أبوك يعتزم أن يذهب بها للبندر، لكن المخاض جاءها مبكراَ بعد سبعة أشهر، فلم يجد أبوك إلا الخالة فوزية الداية، والتي ساعدت أمك من قبل في ولادة محمود، ولكن إنه القدر"

صرخت فوزية وقالت لي: "اذهب إلى الطبيب بسرعة وأحضره.. الطفل سيموت بأي حال.. يجب أن أنقذ أمه ولا أعلم ما أفعل". لم أكذب الخبر وفتحت باب المنزل وهرولت خارجًا تحت الأمطار ذاهبًا عند الطبيب في البلدة المجاورة.

كان مشوارًا قاسيًا ولكن احتملت كل شيء حتى أنقذ المسكينة زوجة أخي.

ـ "أخوك!؟"

سألت بتعجب، فرد عليّ:

ـ "نعم، أنا وأبوك كالأخوة منذ كنّا صغارًا.. والمهم، وصلت للطبيب وأحضرته معي وعدنا فورًا للمنزل.. ولكن كانت المفاجأة بالنسبة لي عندما انخفضت الأصوات ولم أسمع إلا أنينًا هادئًا لامرأة تُنْازع في نفسها الأخير. صعدت مع الطبيب ويا لهول المنظر الذي رأته عيناي!"

ـ "ماذا رأيت؟؟"

سألت بلهفة فانهمرت دمعتان من عينيه، ونظر إلي بعينين حمر كلون الدم من حبسه للدموع محاولًا أن يتماسك ولا ينهار أمامي:

ـ "وجدتك بين يدي الخالة فوزية تبكي وأمك مدرجة في دمائها.. لم أنتبه لما حدث فأخذت بعض الوقت حتى اقترب الطبيب منها ويداه ترتعشان؛ فلم يكن يتصور أن يرى مثل هذا المنظر في حياته.. أخرج حقنة مهدئة لتخفيف الألم الذي تشعر به المسكينة، وقال لأبيك: "أحضر سيارة فورًا أيها المجنون! ستموت بين أيدينا!!"

"نظرت إلى أبيك ونظرت إلى بطن أمك وأنا أبكي، لا أتخيل كم احتملت من ألم. نظرت لي بوهن ونادت علي بأن أقترب منها. اقتربت وأمسكت يدها فنظرت إلى عيني مباشرة وقالت بصعوبة وصوت متقطع: "احمِ حازم من غضب أبيه.. لا ذنب للطفل؛ فأنا أمْ لا أحتمل أن يموت ابني بين يدي لأعيش أنا.. كان قراري وحدي.. إن كان لأحدنا أن يعيش فهو حازم فحافظ عليه وارعه". وأدارت وجهها إلى الطفل الذي يبكي، وبدا أنها استسلمت أخيرًا لما يحدث، فودعت حياتها راضية، ورحلت عنّا بسلام.

تعجبت من كل ذلك، وسألته بصوت حزين:

ـ "ماذا حدث يا عبد الصمد؟ كيف ولدتني أمي؟؟"

ـ "فتحت فوزية بطن أمك بسكين لتخرجك بعد أن التف الحبل السري حول رقبتك، وكان لابد من ولادة قيصرية.. ولتدني الفكر الطبي لدينا والخدمات الطبية، حيث لا يوجد لدينا مستوصف مُجهز بمثل هذه الإمكانيات إلا في بلاد البندر، ولم تكن أمك ستحتمل السفر، فقررت أن تضحي بنفسها وتحتمل كل الألم لتولد أنت. كان ذلك طلبها الوحيد من الدنيا أن تولد أنت بخير، وأبوك يظن دائمًا أنك سبب رحيلها عنَّا، مع أننا جميعًا نعلم أنه لا ذنب لك.. ولكنه القدر يا بني"

ـ "كيف كانت يا عبد الصمد؟؟"

ـ "سر جمال أمْك كان في هدوء نظراتها.. تنظر لعينيها كأنك ترى السماء في صفائها.. في الواقع انظر في المرآة لترى عيني أمك دائمًا تراقبك.. عيناك هما عينا أمك اللتان ترى بهما الحياة، لذا لا يحتمل أبوك النظر مباشرة إليهما، ويغضب دائمًا عندما يراهما.. أبوك يعتصر قلبه الندم"

لم أرد عليه؛ فقد لمست كلماته أعماق قلبي، ولكن كل ما فعلته هو أني عدت لأمارس هوايتي المفضلة.. أصطاد السمك. ربت عبد الصمد على كتفي وقام دون أن يقول أي شيء آخر، وتركني وحيدًا مع خيالاتي. لم أعد لمنزلي في ذلك اليوم إلا متأخرًا حتى لا يراني أبي.. عدت للمنزل وأنا أحمل قرارًا واحدًا غيّر حياتي كلها.. سأغادر البلدة ولن أعود إليها إلا أفضل منهم جميعًا.. لا عيش لي بينهم"

نظرت له هيام وقالت والدموع تكاد تفيض من عينيها:

ـ "إنك معنا الآن يا حازم.. مع قلبين يُحبّانك ولا يرجوان من الدنيا إلا رضاك.. لِمَ قررت أن تحمل بين أضلاعك كل هذا الألم من الماضي وحدك!؟"

ـ "هل تعلمين آخر ما قاله لي عبد الصمد قبل أن يرحل؟؟"

- "..............."

- "احذر يا صغيري؛ فمعاناتك لم تبدأ بعد.. وحين يأتي موعد الاختبار يجب عليك أن تنجح لا لنفسك ولكن لتُنهي تلك النار الموقدة التي تلتهم أحدنا بعد الآخر"

نظرت هيام بتعجب قبل أن تستفسر عن معنى تلك الجملة الغامضة.

- "ماذا قصد بتلك الكلمات؟"

- "لا أعلم ولم أسأل نفسي، ولكن ما يهمني الآن أني استرحت من عبء تلك الذكريات المؤلمة؛ فالماضي... لم أعد أحمله وحدي بعد الآن"

نظر حازم لعيني زوجته وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة، وقام من على الأريكة وطبع قبلة على رأسها، ثم تابع:

- "سأدخل لأنام؛ فعندي محاضرة هامة غدًا قبل أن أسافر"

- "تفضل يا حازم.. سأجلس قليلًا هنا أتابع التلفاز"

ذهب حازم وحده تاركًا هيام، النادمة على أنها أثارت في قلب زوجها كل هذا الألم والحزن والخوف من الماضي.

- "كان يجب عليّ أن أصمت"

تُحدث نفسها وقد اتخذت قرارها أخيرًا: الثقة الدائمة في قرار زوجها، وأنها ستتبع خطاه إلى النهاية.

AFbcU

يدخل حازم قاعة المحاضرات الخاصة به ليلقي محاضرته الأخيرة في هذا العام الدراسي قبل سفره إلى بلدته.

- "صباح الخير.. أتمنى أن تكونوا بخير"

- "صباح الخير بروفيسور"

يرد الطلاب باهتمام.. فيكمل حازم كلامه:

ـ "في البداية أحمل لكم خبر عني لا أعلم قد يُحزن له البعض وقد يفرح آخرين، ولكني حقًا سأكون حزينًا له"

انتبه الطلاب في استعداد تام لسماع الخبر..

ـ "إن أبي مريض ويجب علي أن أعود لبلدتي في مصر لأطمئن عليه، ولذا لن أستطع أن أكْمل هذا الفصل الدراسي، وسيتابع معكم البروفيسور (آدم جونز).. كما أني سأظل معكم على البريد الإلكتروني أتابع، كما كنت دائمًا معكم، آخر استفساراتكم، وأرد عليها بحسب استطاعتي وقدر فهمي"

يقف البروفيسور آدم جونز الجالس في الصف الأمامي ويقول:

ـ "شكرًا لك على هذا الشرف البالغ بروفيسور حازم.. وأتمنى أن أكون عند حسن ظنكم"

ـ "أنا أعلم أنك كذلك"

نظرة حزن بادية على وجوه الطلاب الصامتة، بينما يبدأ حازم في إلقاء محاضرته الأخيرة.

ظلَّ يسأل ويرد على استفسارات تلاميذه، حتى انتهى من إلقاء المحاضرة التامة.

ـ "أتمنى أن أكون وفيت بالشرح وتعلمتم شيئًا جديدًا مني.. أرجو ألا يُصْبح كلامي مجرد كلمات تصل إلى الأذن وانتهى الخبر.. أريد أن أنقل إليكم خبراتي لتعينكم في الحياة؛ فأفضل ما يحدث للإنسان في حياته أن يرى الحياة بعيون الأكبر منه ليتعلم من أخطائهم"

ـ "شكرًا لك بروفيسور"

يرد الطلاب على البروفيسور حازم، الذي بدأ بجمع أوراقه الموضوعة على المنضدة أمامه ويضعها في الحقيبة ويذهب لمكتبه.

صوت دقات خفيفة على الباب يستأذن صاحبها ليدخل على حازم مكتبه.

ـ "تفضل"

بصوت عال يأذن حازم لضيفه بالدخول، فيفتح صديقه البروفيسور آدم جونز الباب ويخطو للداخل.

ـ "حسنًا يا صديقي.. متى ستغادر؟"

يضع حازم كتاب آخر في حقيبته ويرد:

ـ "موعد طائرتي غدًا.. سأغادر مع مصطفى"

ـ "امممم.. سأحافظ على مكتبك حتى تعود.. أتمنى لك رحلة سعيدة"

ـ "شكرًا لك"

ويحتضنه حازم.. يحمل حقيبته البنية ويغادر.. يركب سيارته وينطلق للمنزل حيث سيعد حقائب الرحيل.

AFbcU

# (١٧)

ـ "أتمنى لكم رحلة هادئة"

صوت المذياع في الطائرة التي بدأت تتحرك قد زاد التوتر لدى حازم، الذي كان يكره دائمًا لحظة انطلاق الطائرة. بمقعده بجانب شباك الطائرة بدأ وجهه يتصبب عرقًا، فيما تصعد الطائرة لتبلغ الارتفاع المطلوب. ينظر له مصطفى بنظرة هادئة يملأها سخرية من أبيه.

ـ "هدئ من روعك يا أبي"

ـ "غريب أنك تقول لي هذا مع أنها أول رحلة لك بالطائرة.. لا أعلم كيف تستمتع بذلك!"

ـ "في الواقع أنا لا أستمتع بالرحلة فقط.. بل أستمتع بمشاهدتك وأنت كذلك.. أخيرَا قد علمت ما يُخيفك"

ابتسم حازم لابنه.. حتى استقرت الطائرة في مداها.. تمر المضيفة لتطمئن عليه:

ـ "كيف حالك سيدي؟"

ـ "الحمد لله... هل يوجد عصير ليمون على هذه الطائرة؟ أريد أن أخفف من توتري"

ـ "حاضر يا سيدي"

تذهب المضيفة وينظر لها مصطفى وهو يغمز لأبيه:

ـ "إنها جميلة حقًا"

بضحكات خفيفة بين مصطفى وحازم يسأل مصطفى:

ـ "حسنًا أخبرني يا أبي.. كيف هي البلدة؟ ما هو شكل جدي؟ هل هو ودود؟"

ـ "انتظر يا صغيري.. سنرى سوياً كيف كل ذلك... لقد تركت البلدة منذ مدة طويلة حتى أني لا أتخيل شكلها الآن كيف أصبحت"

ـ "هل يوجد بها حمار؟"

تابع ضحكه وهو يجيب:

ـ "نعم بالطبع.. فهي بلدة ريفية، والحمار حيوان أساسي للزراعة وما إلى ذلك"

ـ "جيد جدًا.. أخيراَ سأتعرف عليه وأعرف الإجابة"

ـ "ماذا تقصد بأنك ستتعرف عليه!؟ وعن أي إجابة تبحث؟؟"

ـ "امممم حسنا.. سأخبرك ولكن لا تضحك علي!"

ـ "اتفقنا.. هيا أخبرني"

ـ "لقد دخلتُ إلى مكتبتك الخاصة ووجدت بعض اسطوانات الأفلام العربية فأحضرت واحدة وبدأت أشاهدها.. في الواقع كان جميلًا حقًا أن أرى بلدات ريفية في بلدي مصر لم أكن أظن أني سأراها يومًا، وانتبهت أن المصريين لا يتحدثون للحيوانات كما نفعل نحن في انجلترا ولا أعلم لماذا"

ـ "كيف ذلك!؟"

سأله وهو يبتسم من سؤال ابنه، وقال في نفسه:

ـ "صحيح ما شابه أباه فما ظلم"

ـ "ماذا تقول؟"

ـ "أقول جيد أنك بدأت تفكر حتى ولو بشيء مثل هذا.. هذه ليست سخافات، بل من السخافة أن نؤمن بالواقع كما هو ولا نعلم لماذا، أو كيف"

ـ "حسنًا يا أبي.. لماذا نحن نقول لحصان مثلًا توقف أو تحرك بينما في مصر أسمعهم يقولون كلمات مثل (شي) أو (حا) ليتحرك الحمار بدلًا من أن يقولون (تحرك).. هل هذه لغة الحمير التي يفهمونها أم فقط تعوّد الحمار أن يُطيع تلك

الكلمات المبهمة؟؟ لماذا لم نعوده أن يستمع لكلمة (تحرك) أو (توقف) إن كانت هي كلمات من اختراعنا؟؟"

ـ "هل تعلم كيف يرقص الثعبان على أنغام الموسيقى؟"

ـ "لا.. كيف ذلك؟"

ـ "في الواقع حيرني هذا السؤال كثيراَ حين علمت أن الثعبان حتى لا يسمع.. ضحكت من تلك النتيجة؛ إذ علمت أن الثعبان يتحرك على حركة أصابع من يراقصه لا يستمع للنغمات التي يطلقها كما يظن بعض الناس.. وكذلك أرى ليس كل ما نراه أو نسمعه هو الحقيقة، لذا الكلمات المبهمة لك في الواقع هي مجرد كلمات متوارثة"

ـ "متوارثة!؟ كيف!؟؟"

ـ "لقد شغلني نفس سؤالك عندما كنت صغيراَ في البلدة، لذا فأنا أتعجب كيف أن الأفكار تتوارث.. يبدو أنها في جيناتنا الوراثية.. وأيًا يكن فقد علمت أن كلمتي (شي) و(حا) هي في الواقع من اللغة القبطية القديمة (ha،shi) وتعني باللغة القبطية (اذهب إلى)"

ـ "يااااه! هل يتحدث المصريون اللغات القديمة!؟"

ـ "لا.. إننا نستخدم كلمات متوارثة دون حتى أن نعي ذلك.. سأخْبرك معلومة أخرى عن الكلمات المستخدمة وبعدها تدعني أنام قليلًا"

ـ "حسنًا"

ـ "أخبرتك من قبل.. ماذا يُطْلق المصريون على ثمرة الطماطم؟"

ـ "أوطة!!"

ـ "صحيح.. هذه كلمة قبطية أيضًا وتُنْطق (Outah) (أوطاه)"

**ينظر حازم إلى شباك الطائرة نحو السحاب في السماء.. يبدو أنه على الرغم من صعوبة تخيل فكرة أنك فوق السحاب، لكن هذا لا يُغْني أبدًا عن روعة المنظر.. يقول في نفسه متذكرًا حواره مع مصطفى:**

**ـ "من شابه أباه فما ظلم!"**

**يبتسم ابتسامة راضية ويُغْمض عينيه ليستريح قليلًا، ويستعد نفسيًا لتوتره القادم أثناء هبوط الطائرة بسلام.**

AFbcU

# (١٨)

يرقد الحاج عبد السلام وصفي على سريره الذي أصبح بمثابة ملاذه الآمن.. مكان مناسب لرجل تجاوز السبعين من عمره وأجهز عليه المرض.. رجل ذو شعر أبيض أضاف لبنيته وطوله وقارًا وهيبة يُحْسد عليهما حتى من أقرب الناس إليه، بزيه المهندم وعصاه ذات الرأس الذهبية.

إنه رجل يعلم جيدًا كيف يستمتع بحياته رغم إصابته بمرض جعله يخشى انتهاء حياته قبل إصلاح ما فعله في دنياه.. خطأ لم يُدرك مداه إلا في فراش الموت.. لقد علم حقًا أن كل ما بناه وشيده سوف يضيع بلا رجعة؛ فهو الآن الدعامة الأخيرة للمنزل الجميل في أحلامه، والذي بدأت أساساته تتآكل ليسقط ذاك المنزل بسقوطه.

إننا لنتعجب دومًا كيف لا يصارح الإنسان نفسه إلا عند الإحساس بدنو أجله!

حقًا الموت هو الحقيقة الوحيدة في دنيانا، التي يعلمها الإنسان ولا يعترف بها إلا عندما تدنو أمام عينيه.

يقولون دومًا لنا بأن الإنسان يعلم بدنو أجله قبل وفاته بأربعين يومًا.. عادات متوارثة لا يعلم صحتها إلا الله عز وجل؛ حيث لا يوجد كائن على وجه الأرض قد توفاه الله وعاد، حتى من عادوا منهم مثل أهل الكهف أو من أحياهم عيسى عليه السلام بإذن الله، لم يحكِ لنا أي منهم متى أحس باقتراب أجله!

حتى ملك الموت نفسه الموكل بأرواحنا لا يعلم..

ليظل الموت هو السر الإلهي في الوجود الواضح في غموضه.

لذا قد استدعى ابنه حازم، ليعود لبلدته وإليه بأسرع وقت ممكن، ليُصَالح بينه وبين أخيه محمود، ليعودا لسابق عهدهما الذي هدمه الحرص على المال والتسابق على الدنيا.

كان يشعر بالخطر..

ظنَّ الشيخ المسكين أنه بذلك قد يبني ما هدمته يداه اللتان أصابتهما ارتعاشة خفيفة بدأت تظهر عليه بمرور الأيام.. إنه السن الذي لن يرحم ضعفه ولا قلة حيلته.

ما عاد بيده أن يحول بينه وبين النهاية التي أصبحت وشيكة، إلا دقائق قضاها في سماع دقات عقارب الساعة التي كانت تمر كسنوات طوال.. كل دقة كانت كسكين يذبح قلبه ويُقْربه من النهاية التي بدت وشيكة.. تجعله يتساءل...

ـ "هل سأعيش لسماع الدقة القادمة؟"

إنها الوحدة القاتلة والصمت الرهيب الذي وضعه فيه عمدًا ابنه المحبوب؛ حيث أصبحت تسليته الوحيدة الآن متابعة سماع دقات الساعة وخفقان قلبه وحركة لسانه الذي يدعو الله ألا يُسّعفه الأجل قبل تصحيح ما أخطأ فيه بحق ابنيه.

تدق الساعة.. وظلت تدق وتدق وهو لا يدري أحيَ هو أم ميت! إنها اللحظة التي يتساوى فيها الحياة والموت، ولا حيلة بيديه إلا الانتظار، ولا أنيس له إلا الثواني القاتلة.

ظل مستلقيًا على السرير في انتظار عودة ابنه حازم حتى آذان العشاء، والذي رافقه انقطاع الكهرباء عن المنطقة التي وقعت فجأة في ظلام دامس.

AFbcU

# (١٩)

لم يعرف حازم أبدًا كنه الشعور الذي يشعر به في تلك اللحظات أثناء اقترابه من البلدة.. هل هو الخوف من القادم؟ أم الخوف من الماضي؟ أم فقط الشوق والحنين لتراب مسقط رأسه؟ وكأن التراب يحن لخليله.. لا يدري حقيقةً بما يشعر.

يلتفت لينظر خارجًا من نافذة القطار...

على يمينه الأراضي الزراعية التي تمتد على طول بصره تبدو أن لا نهاية لها.. اختلط المنظر الأخضر بالرائحة المميزة للبرسيم حين يجري الماء ليُغْطي مجاريه التي يُسّقى منها.. رائحة مميزة للأوراق الخضراء مع اختلاط التربة بالماء.. أشياء لا يحسها إلا من غاب عنها ليعود فيستمتع بتلك الرائحة المميزة التي تريح قلبه.

صوت صافرة القطار التي أطلقها الآن تداخلت مع الأصوات المنتظمة من تحرك عجلات القطار على القضبان الحديدية.. إنه يعشق رتمها منذ صغره.

يدور بعينيه في أرجاء المكان.. ينظر لوجوه الناس.. كلٌّ منها يحمل معاناته الخاصة.. بعضهم يضحك بفرح، والآخر ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزن.. على الكرسي المقابل له شاب وضع رأسه على النافذة وقدميه على الكرسي.. غطّى وجهه بشال هربًا من البرد القارس الذي يدخل عليه من نافذة القطار التي تهشم زجاجها.. خطوط الظل السوداء التي تتقاطع على وجهه من تداخل أضواء أعمدة الإنارة وشمسية النافذة المكسورة رسمت عليه صورة حزينة لشاب في مقتبل العمر قد آسى ما لا يطيقه أحد.. معاناة عاشها شباب ذاك الجيل الذي ظل يعاني ولا يجد يدًا تحنو عليه لترفعه مما ألمّ به من عناء الجري وراء المجهول.

أمامه شيخ كبير كل تجعيدة من تقاسيم وجهه العجوز تحمل في طياتها قصة وحدث ما.. القطار لوحة فنية كبيرة لمشاعر مختلفة.. إنه مجتمع صغير يعكس مجتمعنا الذي نعيش فيه.. اختلفت فيه الطبقات وتعددت الحوارات.. ارتسمت

بداخله قصة الحياة؛ حيث لكل مِنَّا محطته الخاصة التي تنتهي بها حكايته ويذهب ويترك باقي الوجوه على ذاك القطار في انتظار المحطة القادمة.

- "أبي هل وصلنا؟"

قالها مصطفى وهو يتثاءب.. يرفع رأسه قليلًا عن فخذي والده الذي يرد عليه:

- "لا، تبقت لنا محطتان.. أكمل نومك.. سأوقظك حينما نصل"

يضع رأسه مجددًا على فخذي والده ويغُطُّ في نوم عميق:

يسأل حازم نفسه..

- "ماذا أفعل هنا!؟ يبدو أني أخطأت حين عدت!"

- "أستاذ.. تفضل هذا"

يلتفت حازم ناحية مصدر الصوت، ليرى الرجل الجالس أمامه قد قام من مكانه وأعطاه الجاكت الذي يرتديه.

- "تفضل.. يبدو أن ابنك يشعر بالبرد.. أنا لا أحتاجه الآن وسأنزل بعد ثلاث محطات"

- "لا.. إننا بخير.. أشكرك"

خيبة أمل أصابت الرجل، الذي بحركة تلقائية وضع الجاكت على كتفي مصطفى، ونظر لعيني حازم وقال مبتسمًا:

- "قبل النزول ادفع لي إيجاره"

- "شكرًا لك"

ينظر مجددًا للنافذة.. يسرح بخيالاته ويتمنى ألا يوقظه من أحلام اليقظة شيء، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. صوت عال من القطار يصدر عن فرامله ليبدأ في تقليل سرعته.. وأخيرًا اقتربت لحظة وصوله للمحطة المرتقبة، وحان دور حازم ومصطفى ليودعوا وجوه الناس مجددًا، كما ودَّعها مَنْ كان قبلهم.

- "مصطفى.. هيا لقد وصلنا"

يُحْرك حازم كتفي مصطفى ليوقظه.

- "أخيرًا"

يأخذ حازم الجاكت ويعطيه للرجل ويُسّلم عليه.

- "شكرًا لك"

- "عفوًا أستاذ.. إنه كابني"

يتحرك حازم ومصطفى من الكرسي إلى ممر الركاب.. يتجهان إلى أول باب مفتوح، وينزل مصطفى عن القطار يتبعه حازم الذي نظر لبلدته.

- "لن تتغير هذه البلدة أبدًا"

- "أين هي لا أرى شيئًا!؟ أين البلدة؟؟"

لم ير مصطفى البلدة التي عمّها الظلام الدامس بعد آذان العشاء فكانت كأنها عادت للعصر الحجري حيث لم يكتشف الإنسان بعد أن يضيء طريقه بالنار. ظلام دامس، بدت على ضوء القمر من بعيد أسطح المنازل كأنها وحوش من العالم السفلي تهدد من ينظر لها بالرعب.. منظر يجعل القشعريرة تسري في أعناق أشد القلوب قوة.

- "انقطعت الكهرباء.. ستأتي عمّا قريب.. هيا بنا"

ينزل حازم ومصطفى درجات سلم المحطة في اتجاههم للشارع المؤدي للمنزل.

صوت مدو في السماء لأزيز ثلاث طائرات حربية تشرئب له أعناق بعض من في المحطة، والذين انقسموا لذلك الحدث: منهم من لم يُبّد أي اهتمام به.. البعض الآخر نظر لها وعاد لعمله ليركب القطار أو ينزل منه إلى المحطة أو يغدو إلى الشارع.. منهم من يجول بنظره للسماء ليراها، كما فعل مصطفى الذي أبدى بهجة شديدة تلقائية لرؤيته للطائرات تعبر فوق رأسه وكأنه جندي استمد قوته وشجاعته من طائراته تقصف العدو.. خيالات طفل واسعة لا حدود لها.

أسرع خطواته قليلًا ليمشي بجانب أبيه.

ـ "هيا لنذهب لمنزل.. جدك بانتظارنا"

ـ "أريد أن أمشي بجانب الأراضي الزراعية.. أريد الاقتراب منها كما وعدتني"

ـ "حسنًا.. لن نسلك ذلك الطريق، سنسلك الطريق الآخر"

خرج حازم من المحطة.. صوت صافرة القطار المتحرك تُعْلن رحيل القطار إلى وجهته التالية.. يأخذ حازم ومصطفى الحقائب الخاصة بهما وينطلقان إلى الطريق القديم بجانب الأراضي الزراعية والترعة القديمة التي هواها حازم في صغره... ملاذه الآمن.

AFbcU

# (٢٠)

ـ "ماذا تريد منه؟ لماذا أحضرته إلينا؟ أنسيت ما فعله!؟"

بغضب وصوت عال من محمود الذي دخل على أبيه بكشاف أنار غرفة الرجل العجوز.. أوضح به المعالم المخفية لتلك الغرفة البائسة، من سقف أبيض على أركانه خيوط العناكب الرمادية أسّدلت على الجدران اللبنية اللون، والتي جعلها الغبار تبدو وكأنها رملية.. وبالرطوبة التي وصلت لأسفل الشباك الخشبي بقليل، والذي لم يُغْلق جيدًا ليعمل على تهوية الغرفة، ولكن مع الأسف فالغرفة قبلية، لذا لم يدخل منها إلا ذباب النهار وكائنات الليل.

على اليمين يوجد سرير عليه غطاء مزركش بين الأبيض والأحمر الفاتح، نظيف إلى حد ما، يبدو أنه تم غسله مؤخرًا.. بجانب السرير منضدة توجد في منتصفها لمبة جاز يستعملها الحاج عند انقطاع الكهرباء المعتاد بالليل، أو إن صحّ القول كان يستخدمها قبل أن يجبره مرضه على عدم الحركة والإقامة بسريره.. بجانب لمبة الجاز كوب ماء ممتلئ فوق النصف بقليل، على يمينه شريط وثلاث علب من الأدوية المخصصة له وعلبة كبريت، وعلى يسار الكوب يوجد طبق به قطعة من الجبن ورغيف خبز أصابت أطرافه بعض فطريات العفن بسبب الرطوبة في الجو، والتي جعلت للغرفة رائحة مميزة.

على اليسار بجانب الحائط توجد أريكة تسمح بجلوس أربعة أفراد.

ـ "إنه أخوك يا محمود"

ـ "أعلم أنه أخي.. ولكن ماذا تريد منه الآن؟"

دمعت عينا الحاج عبد السلام وأدار رأسه ونظر ناحية اليمين، مما أغاظ محمود الذي خرج وأغلق خلفه باب الشقة بعنف كاد الباب أن ينخلع من شدته متمتمًا بصوت مسموع:

ـ "رجل خرف!"

يصعد درجات السلالم والكشاف ينير طريقه.. تقابله زوجته التي نزلت مسرعة بعدما سمعت صوت محمود يعلو على أبيه كالمعتاد.. نزلت لا لتدافع عن الحاج أو تضع الحق محله، بل اعتادت على تلك الأصوات وكأنها تعطيها نشوة ولذة خاصة.

ـ "ماذا حدث؟؟ اصعد لنتحدث بهدوء"

تذكر محمود أنه لم يُنِر غرفة أبيه الغارقة في ظلامها، فيعود أدراجه وينزل على السلالم مجددًا لشقة أبَيه.

ـ "إلى أين أنت ذاهب!؟ اصعد لتستريح"

ـ "سأنْير غرفة أبي.. سأشْعل له لمبته الجاز"

ـ "دَعَك منه سينام قريبًا.. فيم سيحتاجها!؟ إنه لن يذهب لأي مكان"

يفكر قليلًا، حتى يطيع كلام زوجته في النهاية. وصعد لشقته ولم يدرِ بأن أبيه سمعه وبدأ في البكاء، بينما تحدثه (نجلاء).

ـ "هيا أخبرني ماذا حدث؟"

ـ "هذا الرجل الخرف اتصل بحازم أخي.. هو في طريقه الآن إلينا!"

ـ "حازم!!"

اندهاشة ارتسمت على وجهها بينما يُكمل بلكنته الريفية:

ـ "نعم.. قادم من الخارج"

ـ "لماذا كلمه أبوك!؟؟"

ـ "لا أدري.. ولكن لا يوجد إلا احتمال واحد، وهو أن كل شيء سيُقسم بيننا وسنخسر نصف ما نملك"

ـ "اللعنة!"

وبغضب أكملت نجلاء بينما تُغْلق باب الشقة:

ـ "هذا العجوز الخرف.. لِمَ لا يموت ونرتاح من هذا القرف!؟ هذه العيشة لا تطاق.. نكد!"

(الموت)! وقعت تلك الكلمة على قلب محمود وكأنها شرارة صادفت هوى نفسه، فأشعلت نار الحقد في قلبه على أخيه وأبيه.. جحيم الغضب الذي فتح أبوابه للشياطين لتلهو به حيثما شاءت.. احمرّت أذناه ونظر لنجلاء نظرة شيطانية تَنُمْ عمّا ورد في تفكيره، نظرة جعلت القشعريرة تسري في جسدها فلم تحتمل أن تنظر لعينيه الحمر.

ـ "سأذهب إلى المطبخ لأعد الطعام"

ذهبت وتركت زوجها جليس أفكاره.. أطفأ كشافه لتغرق الغرفة بالظلام وكأنه لا يحتمل أي شعاع ضوء.. وقع قلبه في الظلام بعدما أطفأ بيديه نور الحق.. ظل يُفكر ويُفكر في الخطوة القادمة وكيف سيقابل أخيه.

ـ "محمود......... محمود............. محمود"

قطع تركيزه صوت نداء أبيه عليه.

ـ "بدأنا في الإزعاج مجددًا.. اللعنة!"

يقوم محمود من سريره بعدما أنار الكشاف بيده اليمنى وظلَّ يبحث بقدميه عن قبقابه الذي سينزل به... وجد إحدى فردتيه فارتداها ونزل على ركبتيه فسحب الأخرى من تحت السرير.

يقوم ليخرج من باب الغرفة، ليتفاجأ بزوجته في الصالة تحمل الطعام.

ـ "أين أنت ذاهب؟؟"

ـ "سأنزل لأرى ما يريد.. شيء مقرف!"

ـ "اجلس لتأكل طعامك.. أنت مرهق من العمل طوال اليوم.. استرح قليلًا.. أين سيذهب أبوك!؟ قريباً سيَمل النداء ويسكت.. أو انزل إليه بعد أن تتناول طعامك"

يجلس محمود على (الطبلية) الموضوعة في غرفته، ويُغْلق باب الغرفة بقدمه عليهما آملًا ألا يصل إليه صوت أبيه.

بدأ في تناول الطعام دون النظر إليه؛ فتارة ينظر لباب الغرفة ويريد أن يذهب ليرى حاجة أبيه، وتارة لا ينظر إلا في فراغ عقله ليبحث موضوع عودة حازم المفاجئة.

ـ "محمود......"

AFbcU

# (٢١)

ـ "محمود......"

صوت ضعيف يأتي من بعيد لرجل فقد الأمل في الإجابة وفي الحياة.. وبعين دامعة لرجل ملقى على الأرض في ظلام دامس لم يستطع الوصول لكوب الماء الذي أبعده محمود عمدًا قبل أن يرحل من عنده؛ ليشعر أبيه بحاجته إليه، وأنه هو، وهو فقط، من يقف بجانبه ويملك زمام حياته حتى في أدق الأشياء الضرورية له. حاول الحاج عبد السلام أن يصل للكوب بصعوبة ولكنه لم يستطع، ووجد نفسه مضطرًا لئن يقوم من على سريره ليصل للماء.. يضع يديه خلف ظهره ويقوم من مرقده بصعوبة وكأنه بُعِث من قبره.. يُحرك أسفل جسده ويضع قدميه على الأرض.. يقترب من المنضدة ويضع يده اليمنى عليها ويقوم.. يمسك بيده اليسرى المرتعشة كوب الماء.. وفجأة وبدون حساب، أو كما توقع تمامًا، يسقط على الأرض ويئن من الألم، ولم يجد بُدًّا من النداء على ابنه.. محمود الذي أصمَّ أذنيه عنه.

ظلَّ ينادي حتى فقد الأمل، ووجد نفسه يتخير بين عذاب العيش، وراحة الموت الذي عاش عمره كله يهابه.

دمعت عيناه وندم.. لم يبكِ من عجزه ولا لأنه أصبح لا يرى جيدًا ويكاد لا يسمع، ولكنه بكى بحرقة على تذكره ما فعله في شبابه، فعلم جيدًا أن كل لحظة يقضيها الآن على وجه الأرض هي عقاب الله له، فتمنى أن تنقضي ذنوبه على الأرض قبل أن يتوارى في قبره. وأخيراً سكت عبد السلام عن النداء وانتظر قضاء الله، أو أن يأتيه الفرج الذي لم يعلم بأنه على بُعد خطوات قليلة منه.

AFbcU

# (٢٢)

يرى مصطفى أمامه حجارة صغيرة، فيضربها بقدمه اليمنى ليتطاير بعضها فيقع في الترعة على اليسار، والبعض يتدحرج أمامه فقط سامحًا له ليضربه من جديد.. فيقول له حازم مبديًا انزعاجه من تلك الحركات التي تقطع عليه تفكيره وخيالاته في هواجسه عن الحنين للماضي البعيد:

ـ "كف عن هذا! أنت تزعجني!"

ـ "أحاول تسلية نفسي عن طول الطريق"

سكت حازم؛ فقد كان الطريق الزراعي طويلًا حقًا، إن لم تُصفِّ ذهنك فببساطة تُرّهقك طول المسافة.. سكت ولم يُبّد أي انزعاج بعد هذا.. أو فقط لم يكن يريد لأي شيء في العالم أن يؤثر على سعادته التي لا توصف بعودته إلى بلدته من جديد.

هامت ذكراه فبدى كأحد أبطال السينما أو تلك الروايات التي يهيم بها البطل على وجهه هائمًا في حب فتاته.

يدندن حازم بكلمات تلك الأغنية العزيزة على قلبه منذ سمعها أول مرة صغيراَ على الراديو الذي لم يكن هناك غيره إلا في بيت العمدة فقط.

ـ "قبل ما تنسى العهد الغالي فكر ليلة وهات لياليه ♫ شوف من غيرنا قضى ليالي عايشة بعمر شبابي فيه ♫ هتلاقي خطوة قلبي وقلبك مستنية هناك ♫ شايلالي كلمة فضلت منك لما كنت معاك ♫ وأعمل إيه؟؟ ♫ أعمل إيه قولي ياللي فاكرني بهاجرك أعمل ايه؟؟ ♫"

ـ "بيع قلبك بيع ودك شوف الشاري مين ♫ شوف عهد مين بعدي هيصونهولك مين ♫ العهد اللي رعاك ♫ والقلب اللي فداك ♫ أيامه عمرها بسنين ♫ شوف الشاري مين ♫"

تتفتح شفتي حازم مظهرة ابتسامة امتنان صدرت من أعماق قلبه.

ـ "بتقول ناري تعبت قلبك ♫ مش دي النار اللي كان حبك طاير في جنتها وسارح ♫ ليه دلوقتي بتبعد عنها ليه!؟؟ ليه دلوقتي بتهرب منها ليه!؟؟ ما أهو النهاردة زي امبارح ♫ أهْجر على كيفك وانساني ♫ مسير الأيام تجيبك تاني وأعمل إيه؟؟ أعمل إيه قولي ياللي فاكرني بهاجرك أعمل إيه؟؟"

ـ "بيع قلبك"

رد مصطفى بابتسامة حارة وحنان يملأه الفرح لسعادة أبيه.. أو فلنقل إن صح القول احترامًا لذكريات أبيه.

ـ "لا أعلم حقًا لِمَ تُحب تلك الأغنية! لقد شعرت بالملل من كثرة ما أعدتها عليّ.. كفى أرجوك!"

ـ "أنت مازلت صغيراَ لتفهم تلك الكلمات"

ـ "كيف هذا!؟ أنت أخبرتني أنها أعجبتك منذ سمعتها، وقد كنت أصغر مني سنًا!"

وضع حازم يده اليمنى على كتف ابنه ورد:

ـ "يا صغيري هناك فرق كبير بين حفظك لأغنية وبين فهمك لمعانيها. نعم حفظتها وأنا أصغر منك كما حفظت غيرها، ولكن كل كلمة من تلك الأغنية أحمل معها ذكرى ورسالة في قلبي"

ـ "يبدو أنك كنت عاشقًا يا أبي.. لا تخف لن أخْبر أمي بشيء"

يضحك ويتعجب كيف ينمو الأطفال دون أن نشعر بهم حتى يُفاجئونا بتلك الأسئلة التي لا نستطع أن نُجِيب على أكثرها.

ـ "لا يوجد على الأرض يا بني من لم يمس قلبه الحب يومًا ما.. ولكن تحمل معنى أكبر في قلبي يا مصطفى"

ـ "ما هو يا أبي؟؟"

ـ "إن سخرية القدر مِنّا تكمن دائمًا في ابتسامة حزن"

ـ "ماذا تعني؟ لم أفهم شيئًا!"

ابتسم وأبدى استمتاعه بتلقين ابنه خبرة جديدة من حياته:

ـ "أقصد يا مصطفى أن ذكرياتي تلك تذكرني دائمًا بماضي ظننت يومًا أني أتحكم به، ولكن بعد أن كبرت وتغيرت نظرتي للأمور وجدت القدر لعب بي النرد، وأراه الآن يسخر مني مبتسمًا لي على انتصاره، فلا أستطع الرد إلا أن أبتسم له ابتسامة تحمل كل حزن قلبي على ذكرياتي التي مرت ولم أشعر كم كانت جميلة على سوئها"

ينظر لأبيه بحيرة، بينما أكمل حازم كلامه وهو ينظر لتلك العينين المحدقتين به:

ـ "في الواقع يا مصطفى إن كل ابتسامة تصدر عنك عندما تتذكر أي حدث في الماضي، ما هي إلا حزن دفين على مرور تلك الذكرى، حتى وإن كانت تحمل معها مآسي عديدة"

ـ "أو ابتسامة ندم على أنها مرت"

ـ "الندم صورة من صور الحزن.. مهما اختلفت المسميات"

ـ "حسنًا.. استمتع بطريقك الممل يا أبي.. أريد أن أذهب بسرعة للمنزل.. أريد أن أرتاح"

ـ "لقد اقتربنا من الوصول"

تنبح بعض الكلاب على شيء ما يتحرك أمامها، أو تنبح على اللاشيء، وتصدر أصوات عواء كأسير يئن من جراحه. ينظر مصطفى ناحية الأراضي الزراعية الممتدة محاولًا أن يرى ما يحدث، ولكن خانته عيناه على ضوء القمر فلم ير شيئًا.. كل ما رآه كانت خيالات بعقله الباطن اختلطت معها أصوات تلك الرياح التي تتخلل المزروعات، والتي اهتزت كشعر أشعث لامرأة عجوز، أو تخللت بين

فروع الأشجار الطويلة على جانبي الطريق، التي وقفت شامخة فبدت في الظلام كالجني المنتظر فريسته.

دارت كل تلك الخيالات بعقل مصطفى، فدفعته بحركة لاإرادية أن يقترب من أبيه محاولًا أن يشعر بالأمان.. ينظر لحازم متعجباً من هدوءه.

ـ "لا أعلم، كيف تستمتع بوجود هذه الأصوات!؟ ألا تخاف!؟"

رد مبتسماً؛ فهو يعلم جيدًا أن أي شخص لم يختبر تلك الأجواء ولم تعتد أذناه على هذه الأصوات سيتملكه الخوف والحيرة:

ـ "استمتع بتجارب حياتك المختلفة يا مصطفى حتى لو بدت لك الآن مخيفة.. المخيف الآن سيكون شيئًا رائعًا في المستقبل، إن فقط سمحت لقلبك أن يرى الجمال فيه.. ابحث دائمًا يا ولدي عن الجمال تجده أمامك"

همهم قليلًا:

ـ "لا أعلم، لِمَ تنتهز أي فرصة تجدها ملائمة لتعطيني حكمة من حكمك الغامضة يا أبي؟"

ـ "لأنك ولدي.. وابني بالنسبة لي سيكون بديلًا عني، لذا أحب أن أحاول جاهدًا أن أهْيئ بديلي لحياة مناسبة يستحقها"

ـ "حسنًا.. كما تريد.. أنا دائمًا ما أحب غموض نصائحك أكثر من النصيحة نفسها"

يضحك وهو يشير بسبابة يده اليسرى:

ـ "وأخيراَ، وصلنا للمنزل.. ها هو هناك أمامك"

يُسرع مصطفى خطواته قليلًا، وبدا أنه يعدو، ثم نظر خلفه:

ـ "هيا يا أبي! أريد أن أرتاح.. أسرِع قليلًا!"

حازم بدا كالمترنح من هول الموقف، لا يعلم كنه الشعور الذي يسري في قلبه.. يعتصره الألم بينما هو يقف على درجات المنزل.

**أراد أن يطرق الباب، ولكن يده لم تطعه كأنها يد شخص آخر.. أعطاه مصطفى لحظة من الهدوء؛ فلم يُرِدْ أن يقاطعه وتركه في محنته الخاصة.**

**هل يطرق الباب؟؟ هل يعود من حيث أتى؟؟ ملايين الأسئلة تتخبط في رأسه تريد أن تنفجر بداخله لتخرج تبحث عن الإجابة بنفسها.. الإجابة التي لم تجدها أبدًا في عقل حازم. قرار لن يأخذ منه إلا أقل من الثانية ليعطي الأمر من مخه لجهازه العصبي لتحريك يده ليطرق الباب.. لا بل في الواقع لا يحتاج الأمر إلا لثانيتين.**

**ـ "هيا لن نقف الآن! لقد وصلت لهذا الحد حتى الآن وأنت تقف على أعتابه.. هيا اطرق الباب!"**

**كلمات قالها لنفسه مشجعًا إياها، قبل أن يخرج الأمر أخيرًا من مخه لأعصابه، فتتحرك يده اليمنى ويبدأ بطرق الباب، ليسمع منه صوتًا لم يعرف أبدًا أناتج عن طرق الباب أم دقات قلبه المتسارعة.. وانتظر الإجابة!**

AFbcU

## (٢٢)

في تلك الغرفة المظلمة نرى هذا الضوء الصادر من الكشاف الذي اجتمع حوله محمود ونجلاء يتحدثان أمام الطاولة المستديرة التي تُسمى (الطبلية)، وقد وُضع عليها طبق عليه كوبان من الشاي، وبجانبهما زجاجة المياه الممتلئة حتى منتصفها.

ـ "ماذا سنفعل الآن؟؟"

ـ "مازلتُ أفْكر.. لكن ما أعلمه حق اليقين أننا يجب أن نظهر أمامه كأسرة سعيدة متماسكة"

ـ "ماذا تقصد؟ ألست سعيدًا!؟"

يتأفف محمود من هذا السؤال الذي لا يصدر إلا من النساء:

ـ "سعيد بالطبع.. ليس هذا ما قصدته"

ـ "إذن ماذا تقصد؟؟"

ـ "أقصد أننا يجب أن نُظهِر سعادتنا بوجودنا بجانب أبي، وننسى كل مشاكلنا التي تسبب لنا بها، حتى يرحل حازم عنَّا"

ـ "وكيف سينسى أباك ما تفعله به!؟ أنت تعلم، مهما فعلنا له سيظل ما برأسه في رأسه لا يفقه غيره"

يُطْرق رأسه قليلًا كأنه شارد الذهن، أو كمن استعاد وعيه بعد فترة من الإغماء:

ـ "أبي! اللعنة! لقد نسيت أن أسأله لماذا كان ينادي!!"

ـ "ألم تره سكت عن النداء!؟ كما قلت لك بالضبط، دعك منه سيمل النداء وحده"

ترد نجلاء بعد أن أمسكت بيده وهو يقوم من مجلسه ليرتدي قبقابه وينزل لشقة أبيه ليراه.

ـ "نعم.. معك حق.. لم يعد ينادي علي.. يبدو أنه ملَّ بالفعل.. يعجبني فيكِ أنك صاحبة قرار ووجهة نظر"

ـ "يجب أن تسمع كلامي دومًا؛ فأنا أعلم أمورًا لم تكن لتعلمها أبدًا"

ـ "حسنًا"

يقطع كلامه صوت طرق على بوابة المنزل الحديدية وصوت ينادي:

ـ "يا أبي! أبا محمود!"

يحك محمود شعر رأسه قليلًا وينظر لنجلاء.

ـ "اللعنة! لقد وصل حازم!"

ـ "تمام.. انزل بسرعة لتفتح له الباب قبل أبيك.. يجب أن تكون في استقباله"

يرد باستهزاء عليها وهو يرتدي حذاءه ويفتح الباب:

ـ "وكيف بذكائك سيفتح له أبي!؟ إنه عاجز عن إحضار كوب الماء الذي بجانبه ليروي عطشه"

ينزل من السلالم ويعلو صوته:

ـ "حسنًا.. أنا قادم"

كفَّ حازم عن الطرق بعد سماع صوت أخيه، وانتفض قلبه كأنه كاد أن يخرج من صدره، لا يدري أهو الشوق أم الخوف.. نظر لمصطفى:

ـ "سيفتح لنا عمك.. هذا صوته"

ـ "أتمنى أن يتحرك سريعًا.. لقد مللت الوقوف"

أصوات تصدر عن احتكاك مفاتيح متعددة بالباب الحديدي للمنزل، الذي ما إن تم فتحه حتى أصدر صريراً خافتًا، يعلن عن احتياجه لبعض الشحم لتلين مفاصله.

نظرة تحمل ابتسامة مشرقة معها من محمود الذي قفز بشوق إلى صدر حازم الأطول والأعرض منه قليلًا لاهتمامه بالرياضة من صغر سنه، بعكس محمود الذي حالت بطنه الكبيرة عن احتضان أخيه جيدًا.

ـ "مرحبًا بك يا أخي! يا أهلا وسهلًا! أوحشتني جدًا جدًا جدًا"

قالها بلكنته الريفية، قل أن يرد حازم:

ـ "وأنت أكثر يا محمود.. كيف حالك؟"

ـ "بخير الحمد لله... أهذا مصطفى؟"

ينظر لمصطفى بحنان، والذي رد عليه:

ـ "لا، أنا الحمّال من المحطة"

يبتسم حازم محاولًا تخفيف حدة التوتر؛ فقد شعر بعدم وجود ود بين ابنه وأخيه. رد محمود وهو يحرك شعر مصطفى الناعم بيده اليمنى:

ـ "إذن لِمَ لا تبقى معنا!؟ يوجد لدينا عمل لك هنا"

ـ "أضحكتني يا عماه.. كفى أرجوك سأموت"

رد محمود بنبرة تحمل تهديدًا:

ـ "جميعنا يا ولدي سنفعل يومًا ما.. أليس كذلك يا حازم؟"

يرد حازم محاولًا تغيير الموضوع:

ـ "أين أبي؟؟ لِمَ ليس باستقبالي!؟ أنائم هو؟"

ـ "لا، إنه في انتظارك منذ الصباح.. لكنه مريض قليلًا.. تعال معي لنطمئن عليه.. ستزول عنه الآلام فور رؤيتك"

ـ "أتمنى ذلك"

يحمل مصطفى حقيبته ويدخل، بينما يحمل محمود حقائب أخيه ويدخل ممر المنزل الرئيسي، الذي يُقْسِّم حديقة المنزل الريفي إلى نصفين: على اليسار نجد السيارة القديمة الطراز تعلوها سقيفة من الخشب لتظلل عليها.. على اليمين توجد جلسة ريفية تتظلل تحت أشجار طويلة قديمة قدم المنزل نفسه، وبين شجرتين كبيرتين توجد أرجوحة قديمة معلَّقة بينهما.. يبتسم حازم حين يراها ويتذكرها فيقول محمود:

ـ "لم يتغير شيء، أليس كذلك؟"

ـ "نعم لم يتغير شيء أبدًا.. سوى أننا أصبحنا كبيرين على تلك الأرجوحة القديمة"

يدخل محمود المنزل للممر الرئيسي، الذي عن يمينه السلم وعن يساره شقة الحاج عبد السلام.. يضع محمود الحقائب على الأرض ويبحث عن مفتاح الشقة الساكنة كهدوء المقابر.. يضع المفتاح في الباب ويديره.

يفتح باب الشقة ويدخل حازم بلهفة وينادي...

ـ "أنا عدت يا أبي.. استيقظ يا حاج عبد السلام"

يدخل محمود مبتسمًا من اللقاء المرتقب.. ابتسامة صفراء ارتسمت على وجهه الخبيث قبل أن يُنير كشافه الشقة البالية الكئيبة.

فغر حازم فاه، وانطلقت شهقة بين شفتيه من هول المنظر الذي رآه.. لم يكن ليتوقع أبدًا شيئًا مثل هذا.. لم ينتبه حازم لأي شيء في الشقة التي لم تبق على حالها كما كان يعتقد.. لم ينتبه لأبواب الشقة التي بدت محروقة وعفا عليها الزمن من شدة تآكلها من الرطوبة.. لم ينتبه لشيء!

كل همه الوحيد الآن أن ينقذ أبيه من هول ما هو فيه.. هول هذا الموقف الفظيع الذي نتمنى جميعًا الموت قبل أن نصير فيه.

**تحطم قلب حازم بطريقة بشعة.. تحطمت كل آماله في أن ينعم بإجازة هانئة وسط عائلته، بل فقط فهم حينها ما كان ينتظره في هذه البلدة المظلمة.**

**إنه الجحيم!**

AFbcU

# (٢٣)

ما لم يكن يعلمه محمود أن أباه لم يكن يناديه ليساعده على أن يروي عطشه بكوب الماء الذي أبعده؛ فقد يحتمل أيّ منًّا الجوع والعطش حتى مدى معين.. ولكن كم تبلغ قدرة احتمالك على ذهابك لدورة المياه!؟ وهذا ما جهله.

حاول الحاج عبد السلام أن يقوم على قدميه، فخانته قدماه، فقرر أن يزحف على بطنه بكل ما أوتي من قوة.. ظل يقاوم ويقاوم حتى عبر باب غرفته وزحف متراَ أو مترين داخل الصالة.. نظرة للأمام إلى هدفه المنشود الذي بدى كأنه في الطرف الآخر من الكرة الأرضية.. يضع رأسه بين كفيه ويحتبس دموعه بمرارة ويصيح:

ـ "اللعنة!"

حاول أن يزحف مجددًا بعيدًا عن الأرضية السيراميك العارية من أي سجاد؛ ليمنع عنه شدة البرودة التي اعترت جسده كله.... وفجأة ذهب الألم! وضع الحاج عبد السلام رأسه بين كفيه وظل يبكي بمرارة حتى سمع النداء!

ـ "يا أبي!"

قال في نفسه:

ـ "لا لا! لا يجب أن يراني على هذه الحالة!"

حاول أن يستدير بجسده ليعود ناحية حجرته مجددًا، وبصعوبة حتى استدار.. حاول أن يعود مسرعًا، ولكن من أين ستأتيه القوة التي استنفذها صغيراَ!؟ من أين تأتيه الآن!؟

سمع وقع أقدام وحركة المفاتيح تفتح الباب، فحاول أن يقوم من مرقده فلم يستطع.. حاول أن يزحف مجددًا، ولكن قد فات الأوان؛ فها هو حازم ينظر له وبدهشة يعجز عن الكلام؛ حتى قطع صوت عبد السلام حاجز الصمت، وبصوت حزين ينظر للأمام ناحية سريره قبل أن يقول:

- "مرحباً بك يا ولدي.. لماذا أطلت غيابك!؟ مرحباً بك في بيتك يا عزيزي"

تتلجلج شفتي حازم وترتعشان وهو ينطق تلك الحروف التي اختنقت بداخله:

- "أبي!!!"

تفر منه دموعه التي سالت على خده، وخطا خطواته ناحية أبيه، فجلس على ركبتيه بجانبه وقال:

- "ما بك!؟ هل أنت بخير؟"

أجاب الحاج عبد السلام وهو ينظر للأرض من شدة الحياء:

- "الحمد لله على كل حال يا بني.. الحمد لله الذي وهبني العمر لأراك مرة أخرى"

- "الحمد لله يا أبي.. هيا لننظفك وتستريح على سريرك قليلًا حتى أذهب للطبيب وأحضره"

رد عليه الحاج عبد السلام:

- "مرضي لا يداويه الطبيب يا حازم وإلا لكانت نفسه أولى بالإنقاذ. ساعدني واذهب لتستريح. رحل عني الطبيب هذا الصباح بعدما اطمأن على حالتي"

كذبة ألقاها عبد السلام على مسامع ابنه ليريحه، والحقيقة أنه لم ير أي طبيب منذ أكثر من شهرين، رغم التدهور الواضح في حالته الصحية والنفسية.

ينظر حازم بتعجب وغضب لمحمود:

- "هيا يا محمود ساعدني!!"

وكأن تلك الكلمات أعادته للدنيا التي غابت عن ذهنه من هول الموقف، ومن شدة التفكير فيما جنته يداه، تحرك وأمسك بذراع أبيه اليمنى.

- "هيا يا أبي.. هيا"

وبعون ولديه عاد لسريره بعد أن ساعداه على تنظيف نفسه. يأخذ دواءه وينظر لمصطفى بحنان ويقول له:

- "مرحبًا أيها الصغير.. كان لقاؤنا حماسيًا أليس كذلك؟ لم يجب على حفيدي الوحيد أن يراني أول مرة على تلك الحالة.. كان يجب عليك أن تأتي قبل ذلك"

لم يعرف مصطفى بماذا يجيبه.. لم يجد في ذهنه أي رد مناسب لهذا الموقف.

- "ألف سلامة عليك يا جدي.. أتمنى أن تظل بخير"

- "تعال إلي يا ولدي أقبلك"

يُقْبِّل رأس مصطفى وخديه:

- "هيا يا ولدي اصعد لتستريح قليلًا"

- "لن أتركك يا أبي حتى أطمئن عليك"

تنير الشقة بكاملها عندما عادت الكهرباء للعمل، فيقول بعدها عبد السلام:

- "اصعد يا حازم لشقتك لكي تستريح أنت ومصطفى.. لا يزال صغيراَ وأرهقه السفر"

يُقْبِّل حازم رأس أبيه.

- "سأعود إليك"

- "لقد عُدتَ بالفعل يا ولدي"

AFbcU

# (٢٤)

في تلك الغرفة المستطيلة، يفتح حازم الشباك الأخضر اللون المقابل للباب، لتتخلل أشعة الشمس الصباحية ثنايا الغرفة الصغيرة، فتنير تلك الحوائط الزيتية لتُعطي بريقًا ساطعًا أشبه بشموس صغيرة.. منظر اشتهاه حازم طوال فترة غيابه.. ومع أنه ظهر خلابًا في عينيه، إلا أن مصطفى الملقى على السرير وحول رأسه بقعة ماء ناتجة عن تصبب عرقه طوال الليل، من شدة حر الغرفة القبلية التي تقبع في الدور الثالث فوق غرفة الشيخ عبد السلام، تثاءب بتعب وإرهاق ونظر لأبيه:

ـ "ماذا هناك يا أبي!؟"

ـ "هيا استيقظ.. لا تتأخر هنا في النوم"

ـ "أتأخر عن ماذا!؟ كم الساعة؟"

ـ "إنها السابعة صباحًا.. هيا، البلدة كلها مستيقظة، لا يوجد نائم غيرك"

بتعجب وتعب يضع مصطفى الوسادة على رأسه ولا يجيب، فيلكزه حازم بهدوء:

ـ "هيا أيها الكسول!"

يرد بعصبية:

ـ "ماذا هناك يا أبي!؟ أنا لم أنم طوال الليل دعني أرجوك قليلًا وسألحق بك.. كفاني هذا الحر، فأنا لا أعلم كيف هو صيفكم طالما هذا هو الشتاء!!"

ينظر إلى أبيه فيراه مرتديًا ملابس القرية الرسمية (الجلباب أبيض اللون) فبدا تحت أشعة الشمس كملاكه الحارس يضيء له الطريق.

ـ "سألحق بك يا أبي"

قالها وتثاءب وأدار ظهره لأبيه، وغط في النوم مجددًا.

ـ "حسنًا.. ستجد الإفطار جاهزًا على المنضدة في المطبخ.. أعدته لنا زوجة عمك. عندما تستيقظ ستجدني عند جدك"

ـ "حسنًا حسنًا.. سألحق بك هناك"

ينام مصطفى مجددًا، أما حازم فيأخذ شريحة من الخيار في يده من على المنضدة ثم يخرج من الشقة ليرى أباه.

ينظر محمود بابتسامة خرجت بصعوبة من بين شفتيه للقادم إليه، فيقول لأبيه متصنعًا الفرح:

ـ "ها هو حازم.. استيقظ مبكرًا كما كان يفعل دائمًا"

ابتسم الحاج عبد السلام، بينما دخل حازم الغرفة وقال وهو يحتضن أخيه:

ـ "صباح الخير يا أبي.. كيف حالك اليوم؟"

ـ "بخير يا ولدي.. جيد أني رأيتك مبكرًا؛ ظننت أنك ستنام لبعد الظهيرة من تعب السفر"

ـ "لا استطيع أن أفعل ذلك.. لم أتعود عليها"

يضحك محمود ويربت على كتف أخيه:

ـ "صحيح.. من شابه أباه فما ظلم"

بضحكة خفيفة من ثلاثتهم، يقول الحاج عبد السلام وهو يشير بيده لمحمود:

ـ "هيا يا ولدي.. اذهب لتفعل ما أخبرتك به.. هيا الآن ولا تتأخر علينا"

أبدى محمود ضيقًا وتذمرًا، ولكنه سيطر على نفسه وقال لأبيه وهو يقبل رأسه:

ـ "حسنًا يا أبي.. كما تريد"

ـ "أين مصطفى؟؟"

ـ "إنه لايزال نائمًا"

صوت غلق بوابة المنزل الخارجية، الذي أراح عبد السلام، فقال لولده:

ـ "اقترب مني يا حازم.. أريد أن أخْبرك عن أمرين.. وقد لا تأتينا هذه الفرصة مجددًا"

ـ "لماذا هذا الكلام الآن يا أبي!؟ استرح قليلًا.. الأيام القادمة طويلة وأنا لن أذهب لأي مكان"

ـ "لا يا بني.. الأيام القادمة معدودة.. وأنا لا أضمن أن أعيش للثانية القادمة، وأنتظر الطعنة في أي وقت"

بتعجب ودهشة بدت واضحة على ملامح حازم قال:

ـ "طعنة!!؟ ماذا تقصد!؟؟"

ـ "طعنة الخطية.. قد حان وقت حصادها"

ـ "عن أي خطية تتحدث يا أبي!؟ ماذا هناك!؟؟"

ـ "اسمعني ولا تقاطعني يا حازم... هل تذكر حينما سألتني عن جدك وأنا نهرتك عن ذلك؟"

ـ "نعم نعم؛ فلقد أخبرني محمود أنه قد رآه يومها عند الترعة القديمة وسألك فانهلت عليه ضربًا"

ـ "نعم هو ذاك.. اسمع يا ولدي"

"وها هو ما حكاه والدي لي...."

ـ "أبي رحمه الله كان يسيطر على كل شيء.. صغيرة وكبيرة.. كان المتحكم الأول والأخير في ثروته الطائلة، والجميع يعمل عنده بالسخرة حتى ولديه.. لم يُراعي حق الله فينا وكل حجته في ذلك قوله لنا "أبي عاملني هكذا بالسخرة ولا يعلم الناس غيرها؛ فلولا كرباجي هذا لأكلتنا كلاب البلدة.. وها أنا أمامكم أدير جميع أموالي وزادت ثروتي أضعاف.. يجب أن تكدوا مثلي لتصيروا مثلي.. وبالقسوة وحدها نتعلم"

كان هذا مبدأه في الحياة.. وانقلب السحر على الساحر، فأصابه مرض عُضال كاد أن يودي بحياته كما تمنينا جميعًا، ولكن شاء الله أن يبقى معنا. عاش كالحاضر الغائب؛ فبعد تدهور صحته أصابه فقدان طفيف للذاكرة ظل يأتيه ويزيد معه بمرور الأيام حتى ضقنا به.

رد حازم بحزن:

ـ "تقصد ألزهايمر؟"

أكمل عبد السلام:

ـ "نعم مرض الزهايمر.. ضقنا به جميعًا؛ فلم يترك في أحدنا ذكرى واحدة طيبة تشفع له، فقررت أنا وأخي أن نطرده خارجًا ونقتسم المال.. خشي أخي من حرمة الفعل ومن أن يعيب الناس فيهم، فأقنعته أنا أن الرجل لن يتذكر حتى من هو، فكيف سيتذكر فعلتنا تلك!؟ سينساها غدًا.. كانت أمك حامل بك، وأخوك محمود كان صغيراَ، ولكن كبيراَ بما يكفي ليرى ما فعلته أنا وأخي؛ فقد سحبنا أبانا من يديه قسراَ، وأعطيناه ملابس وبعض الطعام، وذهبنا به للترعة القديمة ليواجه هناك مرضه وحده بعيدًا عنّا"

رد حازم بعنف:

ـ "لماذا كل ذلك!؟ وأنتم بالفعل تحكمتم في كل شيء!؟ لماذا لم تتركوه بينكم!؟"

يتأوه عبد السلام من شدة المرض:

ـ "لماذا لم يحتمل هو أباه!؟ أخبرني!"

يسكت حازم، بينما أكمل عبد السلام:

ـ "نعم.. لقد عامل أباه بنفس الطريقة أمامي.. الجزاء من جنس العمل، وإنها دائرة تأتي لتدور علينا.. ويومًا ما سنشرب جميعًا من نفس الكأس أو أسوأ"

"حسنًا.. تركناه في خيمة بجانب الترعة القديمة.."

ـ "وكيف رآه أخي يومها؟"

ـ "لم نسمع عنه أي خبر لفترة طويلة، وكفَّ الناس عن الحديث عنه، حتى ظننا أنه مات وأحدهم أخذه ودفنه. كنت أقصد ألا أمُرّ من هناك أبدًا في طريقي، ولكن ذلك اليوم حطمت ذلك الوعد المقدس بعدم المرور في تلك الناحية، وأخوك كان في يدي.. وحسنًا، لقد رآه يستحم في الترعة... لم يكن كما تركناه أو عهدناه حسن المظهر يهتم بنفسه.. لقد رأينا مخلوقًا أشبه بإنسان الغاب، يستحم في الترعة ويكسوه الشعر في كل مكان من جسده العاري.. منظر كئيب لم تحتمله عيناي، فتصنعت بأني لا أراه، حتى صاح أخوك بصوت عال جعل الرجل الفاقد للذاكرة ينظر إلينا، صاح وقال:

ـ "إنه جدي يا أبي!!"

قلت له:

ـ "لا ليس هو"

ـ "لا يا أبي إنه جدي.. أنا أعلم ذلك جيدًا"

فضغطت على يده بقوة، ولم يشعر أخوك إلا بيدي تُعبِّر عن كل ما حملته من غضب وندم على وجهه الصغير، فسال الدم من أنفه، وقلت له:

ـ "لقد أخبرتك إنه ليس بجدك.. هيا من هنا!"

لم يزد من حزني وغضبي إلا أن كل ذلك كان يحدث والرجل المسكين ينظر إلينا بعينيه البنيتين اللتين لم تتغيرا بتلك النظرة القوية فيهما.. نظر إلينا ولم يعلم أي شيء؛ لقد استبد به المرض وبلغ به المدى.

تأوه حازم:

ـ "لا يا أبي.. لم أكن أظن أنك بتلك القسوة رغم معاملتك العنيفة معي!"

ابتسم أباه ابتسامة صفراء:

ـ "يا صغيري أنت لم تعلم ما فعلت بعد لتحكم علي. المهم.. يومها ذهبت لأرى أخي المريض في منزله بعدما أخبرني الطبيب أنه لا جدوى للشفاء من مرضه، وأنه

يموت بين يدي.. حزنت عليه جدًا، فلم يطلع عليه الصباح إلا وفارقت روحه جسده.. يومها كان الطريق للمقابر مسدودًا وهناك عدة إصلاحات فيجب علينا الالتفاف من حوله وتحديدًا من جانب الترعة القديمة.. تلك النظرة اللعينة في عيني أبي وهما تنظران لجنازة ابنه جعلت الغضب يستبد بي ويتملك كل ذرة من كياني. لم أعلم لِمَ غضبت، أهي شماتة أبي في ابنه كما ظننت؟ أم لأن ذاك اللعين لم يُبد أي اهتمام بما يحدث أمامه؟ صحت بداخلي له:

ـ "إنها جنازة ابنك عليك اللعنة!"

صوت لم يسمع صداه سوى شيطاني الذي أملى علي ما يجب فعله.. في عتمة الليل تسللت لخيمته فوجدته يعاني حمى شديدة ويتألم.

ـ "أبي.. أنا هنا"

فتح أبي عينيه ونظر إلي كأنه يتعجب من وجود إنسان بجانبه.. ثم أغمضهما وبدأ بالتأوه مجددًا، فقلت له:

ـ "أبي.. لن أسمح لك لتشمت بي كما شمتّ بأخي.. لن أدع عينيك لترى موتي أبدًا"

قلتها وأنا أسحب الوسادة من تحت رأسه وأضغط بها على وجهه العجوز وأنا أردد:

ـ "لن أدعك تشمت بي.. مت الآن أو لا تفعلها أبدًا!"

ضغطتُ بقوة وبقوة أكبر ولم أجد منه أي رد فعل، لم أعلم حينها أأنا من قتله أم هو مات قبل أن أفعل فعلتي.. لم أعلم أبدًا؛ فعزائي الوحيد، أو هكذا أقنعت نفسي، أنه استراح من تعبه. تركته مكانه وعدت لمنزلي. لم يهتم أحد بخبر موته، ولكني علمت من أناس في القرية أنهم كفنوه بملابسه ودفنوه في مقبرة قد بناها لتكون من مقابر الصدقة. وصدقني عندما أخبرك بأني لم أكن أعلم ذلك، فأغلقت عليه باب قبره بيدي وكتبت اسمه على شاهد القبر واعتصر الألم قلبي.. عندما رحل شيطاني وتركني أعاني وحدي.. ذاك اللعين!"

رجع حازم بظهره وكأنه يحاول الفرار من هول ما سمعه، حتى أمسك به عبد السلام وضغط على رجله كأنه يتوسله ليبقى معه.

ـ "ومن تظن أنه سيطعنك يا أبي!؟ كلنا هنا نحبك"

ـ "نعم كلنا كنا نحب أبي رغم قسوته"

ـ "حسنًا يا أبي.. ما فات قد انقضى وما عليه ملام.. لعل الله يغفر لك. ماذا تريد مني الآن؟"

ـ "أريد يا بني أن أطْفئ نار الخطيئة.. لا أريد أن أجرع نفس الكأس، فإن جرعته فاعلم أنكم ستذوقونه يومًا وأنا لا أريد لكم ذلك فهو مُر المذاق قد لا تحتمله قلوبكم.. ولن تعلموا ذلك أبدًا حتى يفوت الأوان"

ـ "لا يا أبي.. لستُ مثلك"

قالها حازم باشمئزاز، بينما ابتسم عبد السلام:

ـ "لكن أخاك كذلك"

ـ "أخي!!؟"

ـ "نعم أخوك.. لذا فالحل عندي.. سأقتسم لكما ثروتي في حياتي فلا تتنازعا بعدي أبدًا.. لقد ذهب محمود ليحضر الأوراق المطلوبة من الخزانة في الاستراحة عند حقولنا، وأظن أنه على وشك أن يعود لنا.. وحينها سيكون قد استراح قلبي"

ـ "لا تفعل ذلك يا أبي.. أرجوك"

ودمعت عيناه، فرد عليه عبد السلام:

ـ "كُف عن ذلك يا صغيري؛ فلقد اتخذت قراري.. وسأفعل ما يتوجب علي فعله. وصيتي الأخيرة يا حازم لك: لا تترك حقك أبدًا مهما بلغ بك الزمن حتى لو انقضى عمرك وانقسم ظهرك وأنت تبحث عنه. عندما رحلتُ كتبتَ كل شيء لأخيك غضبًا منك، ولكن الآن أوصيك ألا تفعل ذلك.. لا تستسلم أبدًا وتدع حقك يا ولدي.. خُذْ هذه الورقة، دعها معك، إذا حدث ما أخشاه اتركها للمحامي وهو

**سيفعل ما يتوجب عليه فعله بها.. لا تفتحها حتى يحين الوقت، ومن يدري فقد لا نحتاج لها"**

**يمد حازم يده ويمسك الورقة ويضغط عليها وعلى يد أبيه ويقول:**

**ـ "كما تأمر يا أبي.. كما تأمر"**

**- "نصيحتي الأخيرة لك أن تحذر من محمود على ابنك الوحيد فحقد زوجته اللعينة عليك وزوجك بلغ مداه خاصة بعد أن تأخرت في الإنجاب عدة سنوات وأصبحت تخشى على افلات محمود من قبضتها.. احذر منها فالمرأة اليائسة لا تتوقع أبدًا ما قد تقدم عليه خاصة وإن كانت أفعى مثل تلك التي يأويها أخوك في عشه"**

AFbcU

# (٢٥)

يفتح مصطفى عينيه بتثاقل، ويتأفف من الحر المضني؛ فالجو الحار يختلف تمامًا عن جو ليفربول الذي اعتاد عليه أغلب فترات حياته إلا بعض الإجازات القليلة التي قضاها خارج إنجلترا. يحدث نفسه:

ـ "ما هذا الحر!؟ لا أطيق ملابسي! لا أطيق حتى جلدي! حر فظيع!!"

يتثاءب مجددًا ويقفز على السرير.. ينظر للساعة المستديرة المعلقة على الحائط على يمينه فوق التلفاز:

ـ "مازالت الساعة الثامنة والنصف.. لماذا أشعر أني نمت دهرًا كاملًا!؟"

يذهب مصطفى للمطبخ ليكشف عن الطعام الذي يراه لأول مرة في حياته.. بعض الفطير بالعسل مع الجبنة القريش.. طعام له مذاقه الخاص.. فجلس ليتناوله حتى شبع تمامًا. وبدأ عصر الملل! لا يدري ما يفعل.. أشعل التلفاز قليلًا لكن أصابه الملل، تقريبا جميع القنوات تعرض نفس الأشياء باستفاضة وباستمرار لا يوجد جديد، فظل يقلب عينيه بين التلفاز وبين الساعة حتى بلغت العاشرة صباحًا، فاتخذ قراره أخيرًا بأن يذهب ليستكشف المنزل وليبدأ من شقة أبيه القديمة.

تلك الحقائب القديمة التي عفا عليها الزمان مازالت كما وُضعت أول مرة فوق الدولاب الخشبي بتنسيق ما غلبه الطابع العام للتراب الملتصق رغم محاولات التنظيف العديدة التي تركت آثارها هي الأخرى. يفتح ذلك الدولاب لينظر لملابس والده القديمة، فيبتسم ابتسامة صغيرة. وأخذ يقلب يمينًا ويسارًا بينها.. إذن لا يوجد شيء. لذا اتجه ببصره للرف العلوي من الدولاب الخشبي ذو اللون البني كأغلب ألوان الشقة عامة، التي أضفت إحساسًا ما بذكريات التاريخ المدون على كل جزء من أركانها القديمة.

ـ "ما هذا!؟"

ينظر لذلك الصندوق النحاسي ويتساءل في فضول تام توارثه عبر أجيال من هذه العائلة.

يُمسك بالصندوق ويحضره معه ويجلس على السرير واضعًا الصندوق أمامه، ثم يفتحه.

ـ "وأخيراَ، صندوق ذكريات أبي الذي حدثني عنه!"

ذلك الصندوق الذي يحمل صوراً وقصاصات من الورق، وأوتوجراف، وبعض الرسائل الموضوعة بعناية، والتي عندما تراها لأول مرة تدرك أنها رسائل ذات طابع خاص، مما جعل الفضول يجول بداخله، وكأن المحتوى قد أثر بما فيه على غلافه الخارجي فبدا كقطعة من الحلوى أمام طفل صغير جائع اشتهاها، ففض الغلاف الخارجي ليرى آخر ما كان يتوقعه.. إنه منديل قديم من القماش المنسوج، أبيض اللون، وقد نُقشت عليه تلك الزهور الخضراء الصغيرة على أحد أركانه، وبخط منمق كتب عليه:

ـ "إلى من يهواها قلبي.. أنقل إليك تحياتي

أنقل إليك زهوري وعطفي وحنان كلماتي

سيدتي دعيني أقولها من بين القلب ودقاتي

أنا أهواكِ في حياتي وحتى المماتِ

وختامًا سيدتي تقبلي مني تحياتي"

يضحك على ما قرأه؛ فلم يكن يتخيل أباه يومًا يكتب ذلك الكلام العذب الذي أثار فضوله بشدة.

ـ "يا تُرى من هي سيدته!؟ ولماذا المنديل معه وليس معها!؟"

ابتسامة خفيفة ثم تابع لنفسه:

ـ "يبدو حقًا أنه لم يكن لديه الجرأة ليصارحها بإعجابه"

وبسرعة فتح هاتفه واختار [الكاميرا]، والتقط تلك الصور المفضلة لديه لذكريات والده، وخصوصًا لذلك المنديل العجيب.

ظلَّ يقلب في الصور وبين الأوراق، حتى سمع صوت انغلاق باب الشقة وحفيف قدمي والده على السجادة القديمة في الصالة، ليدخل عليه الغرفة يطمأن عليه.

ـ "مرحبًا.. ماذا تفعل؟؟"

ينظر مصطفى وابتسامته الساحرة لا تفارق وجهه:

ـ "أقلب في ذكرياتك القديمة.. ما هذا الذي أرى؟ يا تُرّى من هي ليلى أيها القيس؟"

يضحك حازم، عندما وجه له ابنه صورة قديمة له ولفتاة بدت أصغر منه قليلًا أو تكاد تقترب منه في العمر، ومكتوب خلف الصورة البيت الشهير لقيس بن الملوح مجنون ليلى:

ـ "أمر على الديار ديار ليلى.. أقْبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي.. ولكن حب من سكن الديار"

فوجه له السؤل المحتوم الذي تمنى حازم ألا يُسّأل عنه:

ـ "من هي؟"

رد متظاهرًا الغضب:

ـ "ليس لك شأن بذلك.. من أذن لك أن تفتح ما ليس ملكك!؟"

ـ "يا أبي.."

ـ "كفى! ضع ذاك الصندوق مكانه، وهيا لنخرج إلى الحقول قليلًا لأريك القرية وتشاهد مناظر لن تراها إلا هنا"

وقد كان لكلامه الصدى المطلوب، فتلعثم مصطفى قليلًا تحت وطأة كلمات حازم، التي انطلقت كالسهم من فمه.

ـ "حسنًا حسنًا.. أنا قادم معك. سأبدل ملابسي فقط"

ـ "لا ترتدي ملابسك القديمة.. فقط اختر لك جلباب من التي أحضرتها معنا وهيا معي"

ـ "لكن يا أبي لم أرتدِ جلبابًا قبل ذلك"

ـ "لكل شيء مرة أولى"

بتلك الجملة أنهى حازم النقاش وخرج من باب الغرفة تاركًا مصطفى حتى يضع الصندوق مكانه ويبدل ملابسه ليجيء معه. وبالفعل لم تمض إلا دقائق حتى خرج مصطفى بجلبابه الأسمر اللامع بخطوات رزينة وثابتة، فقد قام الجلباب بحجز خطواته الواسعة التي اعتاد عليها مع البنطال.. تبسم حازم وملأ الزهو عينيه فور رؤيته لابنه وقال:

ـ "هيا يا ولدي.. هيا بنا"

ينزل الرجلان السلالم تتعالى ضحكاتهم الرنانة بين ثنايا جدران السلم الداخلي للمنزل.

ـ "أين تذهبان!؟"

يسأل محمود، الذي قابلهما أمام باب شقته، بتعجب.

ـ "سنخرج للفسحة.. أتحب أن تجيء معنا؟"

سأله حازم متمنيًا ألا يوافق، أو كما أُتفق على تسميتها (عزومة المراكبية).

ـ "لا لا.. أنا عائد مرهق.. سأرتاح قليلًا"

ثم أضاف وهو يُغلق باب شقته:

ـ "أراكم مساءَ"

ـ "هيا يا مصطفى دعنا نذهب"

ـ "كيف حال جدي الآن؟؟"

ـ "بخير حال.. إنه فقط نائم قليلًا ليرتاح.. سنطمئن عليه عندما نعود"

قالها حازم وأغلق البوابة الخارجية سريعًا، وبخطوات مسرعة بدا على مصطفى أنه لا يستطع أن يلاحقها، وكأن أباه يهرب.. ولكن يهرب من ماذا!؟

وهل هناك أي أحمق يظن أنه هارب من قدره!!؟

AFbcU

## (٢٦)

- "مع من كنت تتحدث؟؟"

فاجأه السؤال القادم من خلفه، فالتفت سريعًا ناحية مصدر الصوت، ليرى نجلاء وقد بدت في عتمة الصالة كشبح، فاضطر أن يضغط على عينيه اللتين شعر بأنهما تحترقان من اختلاف الضوء بين أشعة الشمس في الخارج وظلام صالة الشقة"

تساله مجددًا:

- "ما بك!؟ مع من كنت تتحدث؟؟"

فيجيب بسرعة ليِسكتها:

- "حازم ذاهب مع مصطفى خارجًا.. للتنزه غالبًا"

- "نعم نعم.. حقهم"

ردت ساخرة بينما دفعها محمود بيده ليزيح الطريق للغرفة قليلًا:

- "ماذا تقصدين!؟ أنا مرهق لا أستطيع المجادلة الآن"

ترد وقد بلغ الغضب معها مداه من تجاهل زوجها لتلك المحادثة التي ظلت تعد لها طول اليوم.

- "وما أرهقك يا محمود!؟ ماذا أراد منك أبوك؟"

- "لا شيء"

- "ماذا تقصد بـ(لا شيء)!!؟ ألم يُرسلك لتأتي بالعقود والمستندات الخاصة بأملاكك!؟"

- "أملاكه يا نجلاء.. ثم أنتِ تعلمين كل شيء كالعادة، ماذا تريدين الآن مني!؟ دعيني أرتاح قليلًا"

- "منذ متى وهي أملاكه يا محمود!؟ ألم يكتبها لك؟"

يرد بعصبية:

- "نعم كتبها لي عند وفاته.. ولكن هي أملاكه.. سيتصرف فيها كما يشاء"

- "نعم لأنه لم يمت"

صدمت تلك العبارة محمود مجددًا، فخاطبها محاولًا تهدئتها قليلًا:

- "أرجوكِ يا نجلاء أنا حقًا مرهق.. ألا أستطيع أن أرتاح قليلًا في بيتي!؟"

- "بيتنا يا محمود.. أو قل بيت أبوك طالما سيتراجع عمّا كتبه لك"

- "يتراجع عن ماذا!!؟"

- "يتراجع عن وعده يا محمود.. سيُقسِّم أملاكك التي بنيتها بعرقك وجهدك.. سيشاركها مع أخيك الذي لم يبنِ طوبة واحدة"

- "من قال لك هذا!؟"

- "من قال!!؟ ولماذا تظن أنه يحتاج الأوراق أيها المغفل!؟"

- "لا أعلم"

- "نعم لا تعلم؛ لأنك تنفذ الأوامر التي تُتْلى عليك كالحمار"

بغضب واستهجان رد محمود:

- "ماذا قلتِ!؟ ابتعدي عني الآن لأن شياطيني حضرت ولا أريد أن أبدو حمارًا معها"

بسخرية ردت عليه:

- "كنت أولى أن تمنع نفسك أمام أبيك يا ناصح... اسمعني يا محمود.."

- "كفى يا نجلاء! كفى!"

- "لا يا محمود واجبي أن أنبهك.. اعلم أن أباك سيُقسِّم كل أملاكه بينك وبين أخيك، أو بمعنى أصح سيلغي لك كل تعاقداتك وتوكيلاتك مع المحامي"

ـ "لماذا سيفعل ذلك!؟"

ـ "تخاريف الشيخوخة"

ـ "لا.. أقصد لماذا لم يفعلها من قبل.. كل شيء كان بين يديه"

ـ "لا أعلم يا محمود.. نحن أمام مصيبة الآن.. كيف سنؤمن مستقبلنا الآن!؟ إنها مصيبة"

ـ "أي مستقبل يحتاج لتأمين يا نجلاء!؟ أنا لا أتأخر عنك في أي شيء تريدينه!"

ـ "وهل هذا هو مستقبلنا!؟ أتريد أن تصبح لنا مجرد بنك متحرك!؟ يا محمود أنت تعلم كل شيء عن تلك الأملاك، وبنيت كل شبر فيها ولم تهجرها كحازم.. أنت أحق بكل شبر فيها، وأنا أخاف عليك"

ـ "وما عساي أفعل إن كانت تلك رغبة أبي!؟"

ـ "إنها ليست رغبته يا محمود.. إنها تخاريف العجز والشيخوخة. أبوك لا يدري ما يفعله، وسنندم كلنا لاحقًا إن تركناه يتصرف بعقله، الذي مات بالفعل وتوقف منذ زمن بعيد تاركًا لنا جسدًا خاويًا"

ـ "أبي ليس بخرف يا نجلاء.. أنسيتي أنه من صنع بيديه كل تلك الأملاك التي نتناقش حولها، وما قمتُ به هو مجرد اتباع لتعليماته!؟"

ـ "أعلم يا محمود، ولكن لكل عصر أوان.. وقد انتهى بالفعل عصره منذ زمن بعيد، وازدهرتَ أنت بدلًا عنه.. ويكفيك أنك لم تهجره"

ـ "وهل تظني أني سأمنُّ على أبي بمساعدتي له!؟"

ـ "لا أقصد ذلك يا محمود.. كل ما عنيته أن أباك انتهى عصره.. انتهى بالفعل.. وأنك تُكْمل الطريق وحدك دون حازم أو غير حازم، والمال أحق بمن يواليه"

ـ "ماذا تعنين!؟"

ردت بخبث:

ـ "ليتركنا أباك نُكْمل رحلتنا، أو ليرحل في سلام"

رنَّت تلك الجملة في عقله وكأنها رياح صادفت بداخله جمرة الشك والقلق، فأشعلت فيه نار الحقد. نظرة عميقة وجهها بعينيه البنيتين لعيني نجلاء وقال:

ـ "سأذهب لأتحدث معه، ثم ليكن ما يكون"

ـ "لماذا لا تسمعني أبدًا!؟ لقد اختصرت عليك ساعات التفكير والقلق وأخبرتك بكل الحقيقة الغائبة عنك، أو أنك تعلمها وعدمت البصيرة. لذا وفّر على نفسك وعلينا عناء التحدث له.. دع عنك القول وافعل ما يلزم لتحمي حقنا"

ـ "سأنام قليلًا يا نجلاء.. شكراَ لتنبيهي.. دعيني قليلًا، وعندما أستقيظ سأتحدث مباشرة لأبي، ومؤكد أنه سيفهمني ويتفهم الموقف"

ـ "هل تظن ذلك!؟ إذن فلتسأله أيضًا لِمَ بعث لحازم أن يعود بسرعة من هجرته تلك!"

يضع الوسادة على رأسه ويده اليمنى فوقها، ويترك زوجته التي تأففت من تلك الحركة، ثم يدعي أنه غطَّ في نوم عميق، ولكن الحقيقة وإن نام جسده فلقد شبت النيران بعقله، ولا نظن أنها ستُطْفأ قريباَ.

AFbcU

# (٢٧)

وتعالت الضحكات لترن في أرجاء المدخل المظلم في تلك الساعة، حيث ينام سكان القرية آملين أن تنال أجسادهم بعض الراحة استعدادًا ليوم شاق جديد في الصباح، إلا هذين الشابين حازم و(مصطفى) اللذين قضيا وقتًا ممتعًا بحق لم يقضياه منذ فترة طويلة مضت.

يضع حازم يده على كتف مصطفى:

ـ "اصعد أنت.. سأذهب لأطمئن على جدك"

لم يرد، بل اكتفى فقط بهز رأسه، واتخذ طريقه نحو السلالم، بينما دخل حازم الشقة في الدور الأرضي، لينتبه إلى تعالي الأصوات بداخل غرفة أبيه:

ـ "ما هذا!!؟"

يسأل نفسه، ويندفع بقوة ناحية الصوت، ليرى محمود يخرج من الغرفة ويطيح بيده في الهواء دليلًا على التأفف ويقول:

ـ "اللعنة! اكتفيت!"

ـ "ما بك يا محمود!؟"

لم يرد محمود، وأزاح بكف يده صدر حازم من طريقه. يندفع حازم لسرير الحاج عبد السلام:

ـ "ماذا حدث يا أبي؟؟"

بعين دامعة وصوت ضعيف رد عليه:

ـ "بل قل (ماذا يحدث)! اصعد لشقتك يا حازم ودعني وحيدًا"

ـ "لا يا أبي.. أريد أن أعلم ما يحدث"

بعين دامعة ينظر لابنه ويجيب:

ـ "ما يحدث تعجز كلماتي الفقيرة عن وصفه.. لا أعلم كيف عرف أخوك ما دار بيننا"

ـ "عن ماذا!؟ تقصد الميراث"

ـ "بل قل حقك فيه. اسمع يا بني.. الطمع قد أعمى قلب أخيك كما أعمى قلبي من قبل. لا أعترض عمّا يفعله معي فلقد فعلته من قبل في جده، وكان لابد أن أتذوق من نفس الكأس الذي يدور بيننا.. فقط جل ما أتمناه ألا تسقط معنا في تلك الدائرة المعتمة فتدور عليك الدوائر. دعك مما يحدث من حولك.. فقط ارحل ودعنا معه. ارحل بعيدًا ولا تعد مرة أخرى إلا لتأخذ حقك، وتلك الورقة التي أسلمتك إياها لتعطيها للمحامي وسيتصرف هو"

وقع حازم في حيرة وبدهشة يسأل عبد السلام:

ـ "كيف تطلب مني أن أرحل وأدعك معه!؟"

ـ "وكيف سترد عني مصيري يا حازم!؟"

بضيق يُمْسك عبد السلام بيد ابنه ويضغط عليها بشدة:

ـ "حازم.. قد أعطيتك ما جلبتك لأجله فارحل عني الآن.. أنفاسي في الحياة معدودة ولا أحتمل هذه المهاترات.. أطع الأمر وكفى!"

تفر دمعة من عين حازم لتنساب على خده بهدوء:

ـ "أمرك يا أبي.. كما تريد"

يُغْمض عبد السلام عينيه لينام قليلًا.. يُقبَل حازم رأسه، ويمسح على شعره بهدوء، ويرحل كما دخل، لا يعلم ما يدور بتفكير أبيه كما الحال دائمًا؛ فلم يعلم أي شيء، ولا حتى عن تلك العين المتربصة، والأذن التي استندت على الجدار المجاور للغرفة، تتنصت بهدوء وتركيز عال كي لا يفوتها أي حرف أو همسة، وتقول في نفسها:

**ـ "أي ورقة أعطيتها لحازم أيها العجوز!؟ ماذا تدبر لنا من وراء تلك الجدران اللعينة!؟"**

**ثم تنسحب بهدوء بعدما اطمأنت من صعود حازم لشقته، وتعدو بخطوات هادئة بدت بها كاللص الهارب، لتصعد بهدوء لشقتها بحثًا عن محمود، تخبره بما سمعت، ليتدبرا أمرهما، ويتداركا الوضع قبل أن يُفْلت الأمر من بين أيديهما.**

AFbcU

## (٢٨)

يصدم محمود رأسه في الحائط المجاور له يأكله الغيظ:

ـ "ماذا أفعل الآن؟ كان معك حق يا نجلاء.. معك حق في كل شيء"

ـ "ألم أقل لك!؟ والآن ما العمل؟؟"

ـ "لن أضيّع حقي أبدًا.. اللعنة! لن أرحم من يقف بيني وبين حقي! أنا من تحملت كل شيء على عاتقي حتى وصلت الأموال لما هي عليه!"

ـ "الآن تخبرني بهذا!؟ ألم تكن أنت من قال أن أباك صاحب كل شيء وله الفضل علينا"

ـ "لا! لولاي ما فعل أي شيء!"

ـ "ماذا تنوي أن تفعل؟ أتتركهم يأكلون حقنا!؟"

ـ "لاا! إما أن يعطيني حقي أو يرحل عنّا للأبد!"

ترد نجلاء بخبث تستفز به زوجها:

ـ "لن يعطيك حقك أبدًا يا محمود.. تعلم لماذا؟"

ينظر لها محمود بعين صارمة ويرد:

ـ "لماذا!!؟؟"

ـ "لأنه ببساطة يعلم أنك لن تفعل شيئًا"

ـ "ماذا!!؟"

ـ "نعم.. إنه يعلم جيدًا أنك لن تفعل أي شيء.. أنت تركته يحضر أخاك وتركت أخاك ينفرد به ويخدعه ليشاركك مالك الذي تعبت فيه دون أدنى منه تعب في أي شيء"

ـ "لن أدع هذا يحدث أبدًا.. أنا ومن بعدي الطوفان!"

ـ "يا محمود لن تفعل شيئًا.. لو كنت ستفعل شيئًا لكنت فعلته من زمن بعيد حينما أخبرتك أن على أبيك أن يموت وانتهى زمنه"

ـ "نعم.. كنتِ على حق وأنا كنت الغبي!"

تمسح نجلاء بيدها رأس محمود وتداعب شعره وتخبره:

ـ "هل علمت الآن من يقف إلى جانبك؟"

ـ "نعم يا نجلاء.. لا يوجد على هذه الأرض من يخاف عليّ مثلك.. كنتِ على حق في كل شيء.. يجب على أبي أن يموت"

ـ "وهل سيدعك أخوك لتفعل أي شيء الآن!؟"

ـ "سيدعني أفعل ما أريد أو ليمت هو الآخر!"

ـ "إنك لغبي!"

ينظر لها بحيرة، وهي تُكْمل كلامها:

ـ "نعم ستكون غبيًا؛ إن مات سيرث ابنه كل نصيب أبيه"

ـ "وماذا في هذا!!؟"

ـ "ماذا!!؟ أنت مجنون!!؟ إن ورث مصطفى مال أبيه الذي أخذه من حقك، لكان من الأولى أن تترك أباه ليأخذ حقك، وكأن المشكلة في الشخص وليس طمع هؤلاء فيك!"

ـ "ما الحل إذن؟"

تبتسم نجلاء، وتُمسك رأس محمود تقرب أذنيه من فمها وتهمس:

ـ "اقطع الجذع تسقط الشجرة"

وكأن تلك الكلمات المبهمة قد لمست طريقها، فصادفت هوى في نفسه، وتركت بصمتها على القلب، فيجيب بخبث وبصوت مخيف اقشعر له جسد نجلاء، وكأنها تستمع لصوت عميق يخرج من فم الشيطان في أعماق الجحيم المظلم:

**ـ "نعم.. نقطع الجذع فتسقط الشجرة!"**

AFbcU

# (٢٩)

**صوت طرقات خفيفة على الباب، فيُجْيب حازم:**

**ـ "من؟؟"**

**ـ "افتح يا أخي أنا محمود.. أريد ان أتحدث معك"**

**ـ "افتح الباب يا مصطفى"**

**يذهب مصطفى سريعًا ليفتح الباب لعمه، الذي بعدما سلَّم عليه فتح له مصطفى الباب على آخره وقال حازم:**

**ـ "ادخل يا محمود"**

**يتعجب محمود مما رآه؛ حيث توجد حقيبة كبيرة مفتوحة على السرير، يضع بها حازم أشياءه الخاصة:**

**ـ "إلى أين أنت ذاهب!؟"**

**ـ "سأعود لإنجلترا.. كلفتني الجامعة بمهمة جديدة يجب أن أعود لها"**

**ـ "بهذه السرعة!؟ أنا لم أتحدث معك حتى!"**

**ـ "لا يهم يا أخي.. سأعود قريبًا ونتحدث كما تشاء"**

**ـ "حسنًا... تعال معي يا مصطفى"**

**ـ "إلى أين!؟"**

**ـ "سنذهب لنحضر بعض الأشياء لتأخذها معك لإنجلترا.. أشياء من البلدة سيحبها والدك"**

**ـ "ولم أنا!؟ خذ والدي.. أنا لا أحبها"**

**ـ "اذهب يا مصطفى.. وهات بعض الجبن الفلاحي معك.. أنا أعشقه ولن تجده في أي مكان أفضل من هنا"**

ـ "هيا يا مصطفى"

يضع يده على كتف مصطفى، وينزل على السلالم ليرى نجلاء تقف على الباب:

ـ "إلى أين أنت ذاهب يا محمود؟"

ـ "سنحضر بعض الجبن والفطير وبعض الأشياء من البلدة لأن حازم مسافر لإنجلترا"

ـ "ماذا!؟ بهذه السرعة!؟ لماذا يا مصطفى!؟ لتبق معنا قليلًا حتى نشبع منك"

ـ "ليس الآن.. تحدثوا عندما نعود حتى لا نتأخر"

يتحرك على الطريق الزراعي حول الحقول، بتضاريسه المختلفة على الجانبين، حتى يصل به لنهاية الطريق الزراعي، ليعبر ذاك الطريق الإسفلتي بسرعة للناحية الأخرى، حيث منزل السيدة أم هاشم أفضل صانعي الجبن القديمة والفطير الفلاحي في هذه البلدة، وربما في هذا الجانب من الريف المصري.

ـ "سأضع لك بعض العسل أيضًا يا ولدي.. لن تتذوق أفضل منه"

يبتسم مصطفى بعدما أعجبه الطعم الذي تذوقه، فينظر لعمه:

ـ "اجعلها تضع لي المزيد بعيدًا عن والدي لأنه لن يترك لي أي شيء"

ـ "لا تقلق؛ لقد أخذت احتياطاتي الخاصة"

ينظر لأم هاشم التي جاءت لهما من بعيد بجلبابها الأسود المزركش ببعض الورود الزيتية والبرتقالية اللون، والتي تحمل بين ثناياها رائحة مختلطة بين الجبن واللبن الطازج، رائحة مميزة لن تشمها أبدًا سوى في تلك المنازل القديمة التي ما زالت حظائرها بالطوب اللبن والقش والتبن.

ـ "تفضل يا ولدي.. بالهناء والشفاء"

ـ "هيا يا مصطفى"

قالها محمود قبل أن يدفعه على كتفه دفعة ودية خفيفة.

ـ "شكرًا يا أم هاشم.. سأعود لك قريبًا"

ويأخذا طريقهما مجددًا نحو الطريق الإسفلتي.. يتوقف محمود لينتظر العربة الثقيلة القادمة لكي تمر"

ـ "توقف يا مصطفى حتى ألتقط أنفاسي يا ولدي"

ـ "يبدو أنك هرمت في السن يا عمي.. هيا نعبر الطريق ونرتاح قليلًا في الحقل"

ـ "لا أستطيع أن أعبر الطريق.. انتظر على الأقل حتى تعبر هذه السيارة القادمة"

يبتسم وينظر من بعيد للسيارة النقل القادمة تحمل أقفاص فاكهة البرتقال من المزرعة القريبة على أطراف البلدة.

ـ "مازالت بعيدة يا عمي.. سنعبر بسرعة"

ـ "انتظر بجانبي هنا يا مصطفى"

ـ "حسنًا"

تقترب السيارة بسرعة تأكل الطريق الإسفلتي.. يبدو أن السائق المتهور متأخر عن موعده فيحاول أن يطير ليصل لوجهته سريعًا.

إنه يقترب...

ـ "اقترب يا مصطفى"

يضع يده على كتف مصطفى ليستند عليه، بينما يراهما السائق من بعيد.

رجل مريض يستند على شاب الصغير.. أخبرتْ السائق حاستُه أن يبطأ قليلًا، ولكن تغلبت عليه مشاعر التوتر والضيق من طول الطريق، فلم يرغب أن يُعْطيهما فرصة المرور من أمامه وقال في نفسه:

ـ "فلينتظرا حتى أمر.. إنها مجرد ثوان"

لم يدر هذا السائق أنها لم تكن في الحقيقة مجرد ثوان معدودة، بل أحداث متتابعة بدأها هو منذ أشعل سيجارة الحشيش ظنًا منه أنها تُهوِّن عليه طول الطريق.

لم يعِ أي شخص ما حدث بعدها.

طريق مقطوع يخلو من أي كائن حي سوى الأشجار على الجانبين إن كانت تُحْتسب.

سائق مخمور.. عربة مسرعة.. شخص أعماه الحقد.. وطفل مسكين.

ـ "حقًا إنها الجريمة الكاملة"

قالها محمود في نفسه، قبل أن يسمع صوت زحف السيارة على الإسفلت، تتبعه بعض الطقطقات لم يدر ما هي.

ـ "اللعنة!!"

قال السائق ونظر حوله يمينًا ويسارًا، قبل أن يُقْرر فورًا أن ينطلق قبل أن يدر أحد ما بمكانه ليصل إليه.

الآن المشهد:

ـ طفل ممدد غارق في دمائه، وحوله بعض الأشياء المتناثرة من حقيبة يده.

ـ رجل ينادي عليه ويهرول ليحمله بين يديه متظاهرًا بالحزن والأسى، ومحاولًا حمله ليصل به للوحدة الصحية بالبلدة.

ـ العربة النقل الحمراء تهرول مسرعة لتختفي عن أنظار محمود.

في المنزل حازم والشيخ عبد السلام ونجلاء في قلق على تأخر محمود ومصطفى.. حتى رن الهاتف.. تهرول عليه نجلاء وترد لتسمع عبارة، حاولت أن تمنع فرحتها لتتظاهر بالصدمة مما سمعته من محمود، الذي يتصل من المشفى التي تم تحويل مصطفى إليها.

ـ "نجلاء!!"

تُجْيب:

ـ "نعم!؟"

ـ "البقاء لله.. مصطفى مات"

تتظاهر بالصدمة!!

ـ "لقد دفعته أمام العربة النقل.. ليأتي حازم المستشفى بسرعة!"

نهاية المكالمة وانقطع الخط، لتسقط نجلاء مغشياً عليها في انهيار تام وبكاء، قبل أن تُخبر حازم، الذي سقط مغشياً عليه هو الآخر.

AFbcU

# (٣٠)

**يرن الهاتف مجددًا.. هيام المشغولة بالمطبخ كعادتها الدائمة لا تجد الوقت لتذهب للرد عليه، فنادت على أمها:**

**ـ "أمي، ردي على الهاتف أرجوكِ أنا مشغولة الآن"**

**لا تجيب أمها، فتتابع لتقول لنفسها:**

**ـ "يبدو أنها مشغولة بالحديقة كعادتها.. لا أعلم أأنا ابنتها أم تلك القطة!؟"**

**ترفع هيام السماعة..**

**ـ "آلو"**

**وكان آخر ما سمعته من الدنيا.. صوت حازم يخبرها بوفاة مصطفى. لم تدر ما تفعل!**

**توقفت عندها الحياة!**

**ظنت لوهلة أنها سمعت تدفق دمائها في الشرايين، قبل أن تغيب عن العالم.**

**حازم الذي يصرخ في الهاتف:**

**ـ "هيام!! ردي علي!! هيااام!!"**

**بصراخ متتابع لا يجد ردًا، ولم يسمع لبعض الوقت سوى بعض همهمات الأجهزة الكهربائية من حول الهاتف، والتي بدت له كوحش صغير يزمجر غاضباَ.**

**ـ "هيام! ماذا حدث!؟"**

**يسمع حازم صوت المنادي بقلق كاد أن يطير عقله.**

**ـ "يبدو أن أمها معها"**

**قالها لنفسه قبل أن يتابع:**

- "آلو.. هيام ردي علي!! (هيام)!!"

ترفع أمها السماعة:

- "ماذا حدث؟؟"

تسأل أمها بلهفة قبل أن تسمع صوت (حازم):

- "كيف حالها؟؟ أين ذهبت؟؟"

- "(حازم)!؟"

- "نعم أنا (حازم).. ماذا حدث لـ(هيام)؟؟"

- "لا أعلم، فقدت الوعي.. سأستدعي الطبيب حالًا.. ماذا حدث؟؟"

- "لقد مات مصطفى يا أمي"

شهقت وفتحت فاهها وكأن لسانها عاجز عن الرد، لم تدر ما تقول أو ماذا تفعل، حتى تمالكت أعصابها وقالت:

- "البقاء لله يا (حازم).. ابق عندك ولتفعل ما يتوجب عليك فعله حتى أطمئن على هيام وأخْبرك بكل شيء"

- "حسنًا.. أرجوكِ أنا أموت في الدقيقة ألف مرة.. لا تتأخري في الرد علي"

لم يسمع بعدها سوى صوت السماعة وهي تُغْلق.. لم يدر بعدها أين يذهب، حتى جاءته (نجلاء)، وقالت:

- "(حازم)!"

ينظر لها حازم بعين تحاول حبس دموعها فلم تستطع، إذ انفلتت منها واحدة تجري على خده:

- "نعم"

- "هيا لتذهب للمشفى مع (محمود).. إنه في انتظارك"

- "حسنًا حسنًا... كيف حال أبي؟"

ـ "إنه بخير"

قالتها وهي تربت بحنان على كتفه لتشد من أزره.

ـ "السيارة بانتظارك بالخارج.. هيا يا حازم شد حيلك"

تفر دمعة من عيني (حازم):

ـ "الحمد لله"

يركب مع محمود السيارة، التي انطلقت مسرعة نحو المستشفى.. يضغط محمود على قدم حازم اليسرى ويقول:

ـ "اجمد يا (حازم).. قضاء وقدر.. أنت مؤمن والمؤمن مصاب"

يكتفي حازم بهز رأسه، ونفسه تحمل شيئًا من أخيه، لكنه لم ينطق بكلمة حتى وصلت السيارة لجراج المستشفى.

قال محمود وهو يتحاشى النظر لأخيه:

ـ "هيا بنا"

يغلق خلفه السيارة، ويأخذ بيد حازم وينطلق نحو الاستقبال في بهو المستشفى الرئيسي.

ـ "الدكتور عبد التواب مصطفى إذا سمحت"

رد عامل الاستقبال على محمود:

ـ "إنه بمكتبه في الدور الثالث.. المصعد من هنا"

يركبان المصعد، ويضغط محمود على زر الدور الثالث، ثم يتنهد تنهيدة خفيفة، قبل أن يفتح باب المصعد ويخطو من بهو الاستقبال أمام المصعد نحو الممر، يلتفت يمينًا ويسارًا، فيجد في اليسار بعض الغرف المخصصة للمرضى، لذا يأخذ يد أخيه وينطلق نحو الممر ناحية اليمين، ليقابله ممرض فيقول محمود:

ـ "مكتب الدكتور عبد التواب مصطفى..؟"

يشير الممرض ناحية الغرفة الثالثة أمامهما على اليمين:

ـ "ها هي"

ـ "حسنًا شكرًا لك"

ثلاث دقات خفيفة على الباب الخارجي للمكتب، فيُسمع صوت من داخل المكتب يقول:

ـ "تفضل بالدخول"

يفتح محمود الباب وينظر لأخيه ويقول له:

ـ "تعال يا (حازم)"

يمد يده مصافحًا الدكتور عبد التواب، ويتبعه حازم فيقول الدكتور:

ـ "تفضلا بالجلوس"

يقول حازم بصوت مرتجف:

ـ "أنا حازم وصفي.. والد مصطفى وصفي.. جئت للتعرف عليه"

بتأثر يعض عبد التواب على شفتيه ويقول:

ـ "أنا آسف.. الحالة كانت صعبة جدًا.. لقد وصل للمستشفى متأخرًا.. لم نُقصر في أي شيء، لكنه رفض الاستجابة للإسعافات حتى توفاه الله.. لو كان وصل مبكرًا لأسعفنا الوقت"

يُسرع محمود ليرد على الطبيب:

ـ "إنها المواصلات الصعبة يا دكتور سبب التأخير.. لقد حدث الأمر في منطقة شبه نائية"

ـ "حسنًا حسنًا.. لقد أنهيت إفادتي للحادث مع الشرطة، وسيدخل الضابط هشام معنا في المشرحة.. إنه ينتظرنا هناك ويُتم بعض الإجراءات"

يرد محمود وهو يضغط على رجل (حازم):

ـ "حسنًا يا دكتور.. هيا لننهي الأمر.. إكرام الميت دفنه، وأنت تعلم أنه لابد من الإسراع في الأمر"

ـ "نعم أعلم.. هيا بنا"

يربت على كتف (حازم)، الذي يتبعهما وهو صامت ويكاد قلبه يثور بين عظام صدره، وعيناه حمراوتان تعاني الأمرين في كبت كل تلك الدموع المحشورة، محاولة أن تتزاحم في عينيه ولا تجد متسعًا لتخرج منه!

بدا الممر أمامه، الذي ينتهي بالباب الكبير، معلقًا عليه اللافتة التي لم يستطع بلع ريقه بسهولة حينما رآها معلقة أمامه.

[المشرحة]

بدا الممر كسرداب طويل لم يعلم حينها كنه شعوره.

أيريد أن ينهي الممر مسرعًا لينتهي من الأمر!؟ أم أنه يتباطأ لا يريد أن يتم ذلك الأمر أبدًا وكأنه في عالم من الخيال أو حلم طويل مفزع يُريد أن يستيقظ منه فلا يستطيع.

يدفع الدكتور عبد التواب الباب الكبير بيده اليسرى وينظر لمحمود وحازم:

ـ "هيا من هنا"

يدخلان من الباب ليجدا الضابط هشام يصافحهما.

ـ "البقاء لله.. هل أنت مستعد؟"

يرد حازم بصوت مكبوت وهو يهز رأسه بصعوبة:

ـ "نعم"

يسحب الرجل الآخر الذي لم يكن يريد حازم أن يعرفه أو يدري من هو، أو ربما لم يكن موجودًا من الأساس، فلم ينطق أو يتحرك الرجل حتى أمره الضابط بذلك.

يسحب شيئًا أشبه بالدرج يخرج من الفتحة، سرير رفيع مثل سرير غرفة العمليات، وتخرج بعض الأبخرة الخاصة بالغاز المسؤول عن التبريد بداخل الفتحة.

يكشف الضابط الغطاء عن وجه الشاب الصغير، لينتهي بذلك هذا الفصل من المسلسل الخاص بحازم المتظاهر بالتماسك.

يسقط على الأرض ويبكي بهيستريا.. يحاول الدكتور ومحمود تهدئته دون أي فائدة.. يأخذ محمود برأسه ويضعها على صدره ويمسح بيديه الآثمتين على شعر رأسه محاولًا تهدئته، ولكن محال.

عندما تأكد حازم أنه لا يحلم، وأن ما يراه هو الواقع الأليم الذي لا مفر منه..

انتهت الحياة بدون ولده..

انتهت الحياة تمامًا لا يدري ما يفعل أو لماذا!!

فقط انتهت الحياة بالنسبة له، فقال بملء فيه كل ما كان يكبته.

ـ "ولدي!!! ولدي!!!"

تنهال الدموع لتغمر خديه الحمراوين بشدة ولا يدري ما يفعل.

مشهد ديناميكي لم يحتمل حتى القاتل شدته، فذرف دمعتين كدموع التمساح الباكي على ضحيته قبل أن يفترس ما تبقى منها.

يُغْلق الرجل الدرج الخاص بجثة الشاب، ويحمله الضابط ومحمود لمكتب الدكتور.. يحملانه من تحت كتفيه وقدماه لا تلامسان الأرض.

عينان باكيتان، وقلب مفطور، ولسان لا ينطق إلا بـ"ولدي" لم يعلم أينادي عليه أم استغاثة إلى الرحمن.. ولكن انتهى كل شيء!

يمر بحالة انهيار، ويمر هذا المشهد من أمام المريض الذي وقف بباب غرفته في انتظار موعد العملية الخاصة به، عندما سمع الجلبة ورأى المنظر ليقول:

ـ "لا حول ولا قوة إلا بالله"

**تنهمر الدموع من عينيه لا يعلم لماذا!**

**لكنه يبكي بشدة على هول المنظر أمامه، ولم يدر كيف يساعد أو ماذا يفعل غير البكاء.**

**وما تفعل المساعدة وقد قُضي الأمر!؟**

AFbcU

# (٣١)

احتشد الجمع الغفير في ذاك اليوم الأسود عند موقف السيارات الرئيسي بالبلدة في انتظار سيارة الإسعاف التي تحمل جثمان الشاب الصغير.

بعضهم يبكي في شدة، والبعض الآخر يعض على شفتيه، وبين هذا وذاك يضيع كل ذلك في دعاء المحبين والمخلصين من أهل البلدة، خرجوا لتشييع الجنازة من مسجد البلدة الكبير، الذي انتظر به آخرون فامتلأ عن آخره حتى افترش بعضهم الشارع المقابل للمسجد، واختلفوا بين من يتسامر ويتحاكى بشدة المشهد وشهامة محمود الذي حاول أن ينقذ الشاب الصغير، ومنهم من يصلي ركعتين لله وتحية للمسجد، وهناك آخر يحاول أن يحتمي من شعاع الشمس الذي ينفذ من فتحات القبة الكبيرة التي تغطي منتصف المصلى الرئيسي، أرسلت نورها ليحرق أصابعه فيضم بحركة لاإرادية ركبتيه ويضع رأسه بينهما في أسى.

مشهد حزين لم يحتمل أي تأفف من شدة الشمس في ظهيرة ذاك اليوم الحزين؛ فأغلب ما يميز أهل الريف أنهم يحتشدون جميعًا لمواساة المصاب في أهله، بجلبابهم الأبيض الذي يرتديه أغلب الرجال، فبدا كأنه يوم الحساب. اختلط الخلائق، واختفى النعش وسط الزحام عن أعين المتخلفين من شدة الزحام، والذي أنزله الرجال على الموقف ليحملوه على أعناقهم طامعين في الثواب الكبير.

بحفيف الأرجل على الأرض غير الممهدة التي تتحرك بصعوبة من تلاصق الأكتاف ببعضها، ترى من يهرول من الخلف مسرعًا محاولًا أن يدفع الناس ليصل للنعش يحمله على كتفيه، وآخر يتهافت ليزيح من يحمله ويضع كتفه عليه. تنهمر دموع بعض المارة، واشرأبت أعناق النساء من البلكونات المطلة على الشارع، وطأطأت الحيوانات رؤوسها، في مشهد اقشعرت له أبدان من انتبه لسكون تلك المخلوقات المسكينة التي ترى ما لا يراه البشر، وكأن شدة الحادثة وألمها أصابت

الجميع بالرهبة والسكون، فلم يعلم الجميع هل ترى تلك الحيوانات ملائكة الرحمن، أم أنها أحست بقدوم غضب الدين الذي سيأتي أجله ليُرَد إلى صاحبه.

لا أحد يعلم، والجميع يمشى كلٌّ في حاله، ينظر بخشوع وسكون إلى الأرض، أو يتابع بعينيه حركة النعش الأخضر الخشبي المتنقلة على أكتاف الرجال بهدوء وسكينة.

واضطرب المسجد، وتحرك الرجال بعشوائية وتدافع ليُفْسحوا الطريق للنعش، يوضع أمام المحراب وخلفه اثنان يحملان رجلًا من كتفيه وأصابع قدميه تكاد تلمس الأرض، وهو يبكي بحرقة ولسانه لا ينطق إلا بالشهادتين محاولًا الصبر.

يربت الجميع على كتفه، ويحتضنه البعض، ويشاركوه البكاء من الحزن أو من التأثر، وهو لا يشعر بأي شيء من حوله.

لم يشعر بأحد من الموجودين أو الغائبين، ولم يشعر كذلك كل من حضر؛ انشغل الجميع بمواساة حازم ولم يلتفت أو ينتبه أيهم لغياب محمود.

صوت باك ينادي:

ـ "الصلاة على من حضر أثابكم الله"

انتظمت الصفوف، وخفَّ البكاء سوى من نهنهة الأب الذي لم يفق من صدمته، حتى بدأ الإمام الصلاة بالتكبير.

ـ "الله أكبر"

AFbcU

# (٣٢)

ـ "لا يهم أبدًا بماذا أشعر.. لا يهم أبدًا ماذا أعلم.. فقط القتلى سيبقون كما هم.. قتلى"

يرد محمود بخشونة:

ـ "ماذا تقصد!؟ أنت لم تر أي شيء! لقد كانت حادثة!"

فرد عليه عبد السلام وصفي وهو يحاول أن يعتدل في منامه ليواجه بعينيه القويتين وجه ابنه:

ـ "صدقني يا محمود أنا لا أحتاج أن أرى؛ يكفيني أن أراك الآن لأعلم كل شيء"

ـ "تعلم ماذا!؟ ينبغي عليك أن تقوم من منامك هذا أيها العجوز حتى ترى كسرة ابنك وهو ينازع ليبقى على قيد الحياة، يكاد الحزن يخنقه، وكل هذا بسببك!

يُمْسك بيد أبيه بقسوة ويُكْمل:

ـ "بسبب يديك هاتين... إني أتعذب في اليوم أكثر من مرة عندما أتخيلك وأنت تكتب تلك الورقة اللعينة لتهضم حقي"

ـ "عن أي حق تتحدث يا محمود!؟"

ـ "عن حقي يا أبي.. أنت تعلم عن ماذا أتحدث.. تعلم جيدًا"

ـ "لا أعلم إلا ما أعلمه.. ولكن السؤال ليس عن مدى علمي، بل عن مدى استعدادك لتعلم"

بغضب يرد محمود وباستهتار:

ـ "كفاك مهاترة! أنت السبب في كل ما يحدث!"

ـ "نعم معك حق.. أنا السبب.. وقد تأخر الوقت كثيرًا لأعلم ذلك، أنا متأكد.. ولكن ماذا تريد الآن؟؟"

- "أريد حقي.. حقي أنا"

- "ومن قال أنك لن تأخذ حقك!؟"

- "أنت"

- "أنا!!؟"

- "نعم، أنت من أراد أن يُعْطي من حقي لأخي.. أتنكر ذلك!؟"

- "ما لا أستطيع إنكاره أنك لا تريد حقك"

بتعجب ونصف ابتسامة يرد محمود:

- "وكيف ذلك!؟"

- "نعم أنت لا تريد حقك.. قلها من قلبك.. أنت تطمع في حق أخيك"

- "وهل لأخي حق في مالي!!؟"

أكمل عبد السلام كلامه وكأنه لم يسمع تعليق محمود:

- "كنت أعلم من داخلي أن هذا سيحدث.. ولكن لماذا لا تقف مع أخيك ونتحدث في هذا لاحقًا!؟ فليس هذا الوقت المناسب"

تلمع عينا محمود وهو يقول:

- "لا أنت مخطئ.. لا يوجد وقت أنسب من هذا.. حتى أنتهي من مهمتي في الحفاظ على ما أملك"

فهم عبد السلام مقصده، فأغمض عينيه محاولًا التظاهر بالهدوء:

- "وهل تظن ما ستفعله سيحفظ لك حقك!؟ ستكون أغبى إنسان يمشي على وجه الأرض، ولم تفهم أي درس مما سبق.. لا توجد في الكون جريمة كاملة"

يقترب محمود بهدوء من رأس أبيه وهو يقول بصوت منخفض:

- "دعني أهتم لك بالتفاصيل"

يضحك عبد السلام مستهزئًا:

ـ "أي تفاصيل تقصد!؟ أتظن أن تلك التفاصيل ستُخْفى عن الله!؟ معاذ الله، بل ستُؤخر لموعده وستجرع من نفس الكأس كما سأجرع منه؛ فقد كانت كاملة.. أو هكذا ظننت"

لم يفهم محمود مقصده، وأنه كان يتحدث عن جريمته السابقة، فاقترب أكثر من أذن أبيه ليهمس له بكلماته الأخيرة، فسبقته كلمات يتمتم بها عبد السلام وهو يذرف دموع الندم.:

ـ "لكم يحزنني أن تكون بيدك يا محمود! الآن أحسد أبي؛ فلم ير من فعلها به أو رآه فلم يعلم من هو.. كم أحسده الآن على هذه النعمة! أما أنا، فقلبي يتقطع مرتين: أن تكون بيد ابني الحبيب، ولكن قضي الأمر وطال انتظار موعدي، فكم سيطول انتظارك!؟ وأظنه قريباً يا صغيري؛ فلقد تماديتَ أكثر مما تماديت أنا"

ينظر مباشرة لعيني محمود بعينين دامعتين، وأكمل وهو يقول:

ـ "هيا يا بني.. افعلها سريعًا رأفة منك إلي"

ويوجه نظره ناحية اليسار، وكأنه يتحدث مع الحائط أو إلى المجهول، وأكمل:

ـ "أرحتني يا ولدي.. كنت أعلم أنك ستوفي الدين. هذا ما جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد. كما تدين تدان، وسترى ما سيحدث لتجني أنت ما زرعت يداي"

يقترب محمود ويهمس في أذن أبيه:

ـ "الوداع يا أبي"

قالها وهو يُمْسك بالوسادة الصغيرة بكلتا يديه، ويضعها على وجه أبيه، الذي استسلم له، وحاول أن يكتم أنفاسه لتسهيل مهمة محمود ليقضي عليه سريعًا، أو هكذا ظن.

يضغط محمود بكل ما أوتي من قوة، حتى شعر عبد السلام بنفاد الهواء من رئتيه، فبدأتا تحترقان من الداخل.. وكالطير الذبيح حاول يائسًا أن يدفع محمود ليتمسك بقيد الحياة كحركة لاإرادية، ولكن محمود قد سبقه وأحكم قبضته وظل يضغط بقوة، حتى بدأ عبد السلام ينتفض تحت يديه، وتتحرك قدميه بعشوائية حركات متخبطة، حتى قلّتْ حركاته، وتباطأت ضربات قلبه، حتى سكنت.. وانتهى.

ورحل عبد السلام وصفي!

منظر لم يحتمل محمود بشاعته، فخرج مسرعًا من الغرفة ومنها لخارج لمنزل، يهرول كالمجنون من الشارع. كاد أن يصدم مجموعة من النسوة لم يعلم كيف ظهرن من العدم.

قالت إحداهن:

ـ "مسكينة هذه العائلة!"

فردت عليها الأخرى التي غطت وجهها بنقاب أسمر اللون:

ـ "من هو هذا الرجل الذي يجري كالمجنون في الشارع!؟"

ـ "إنه محمود وصفي.. عم مصطفى، الشاب الذي توفي في الحادثة"

فردت بتأثر:

ـ "الله يرحمه ويصبر أهله"

ولم يعلمن أبدًا أن المسكين يحاول أن يهرب يائسًا من مصيره المحتوم، وكأنه قد ينجو! هيهات!!

AFbcU

# (٣٣)

يا له من أسبوع! لم يهدأ خلاله هذا البيت الذي يكتوي بنار الفتنة.

منظر لنعش يهوي لمستقره الأخير في تلك الجنازة المهيبة، يُحرك مشاعر أقسى قلوب الرجال قساوة، فتُذْرف الدموع سجالًا.

يتهادر الجمع الغفير الذي لم يرتح بعد من عودته من المقابر منذ يومين، ليكون يوم أربعاء أسود، حيث كادت أن تقع نار فتنة مجددًا بسبب هذا الجثمان.

وكان هذا ما حدث بين شيخ القرية وبعض رجال العائلة، واعتراض حازم و(محمود) على ما يجري.

قال شيخ القرية بصوت مرتفع برأيه الذي بدا صحيحًا لأغلب رجال القرية إلا عائلة وصفي، فقال:

ـ "يجب أن يُدْفن في مقابر أخرى غير تلك المقبرة؛ لأن بها شاب دُفِن حديثًا.. لا يجوز"

رد أحد رجال عائلة وصفي:

ـ "كيف لنا أن ندفن الكبير عبد السلام في مقابر أخرى غير مقابر العائلة، وتلك المقبرة التي بناها بيديه!؟ مستحيل!"

يرد الشيخ بعصبية:

ـ "هذا حكم الله.. يجب أن نجد مقبرة أخرى. لا يجوز.. اتقوا حرمات موتاكم"

قال محمود محاولًا تهدئة الوضع القائم:

ـ "حسنًا.. نذهب به لأي مقبرة ثم ننقل رفاته مستقبلًا"

رد أحد الرجال على محمود:

ـ "وأين تقترح أن يتم دفنه؟؟ أنت ابنه الكبير وهذا حقك"

رد محمود سريعًا:

ـ "إحدى مقابر الصدقة"

هاج وماج رجال العائلة رفضًا.. فتابع محمود كلامه:

ـ "ندفنه في إحدى مقابر الصدقة مؤقتًا.. ثم ننقل رفاته بعد ذلك لمثواه الأخير في مقبرته بجانب مصطفى رحمة الله عليه"

اعتراض تام على المقال، فرد الشيخ مسرعًا ليبدي موافقته:

ـ "أرى أن هذا حل مناسب يرضي جميع الأطراف"

ـ "حسنًا.. وأي مقبرة تقترح؟؟"

وجه سؤاله مسرعًا ناحية محمود، الذي لم يدر جوابًا فقال الشيخ:

ـ "أنا أعلم واحدة"

وافق الجميع، وانطفأت نار فتنة كادت أن تقع، وانطلق المشهد ببطء ليمر بجانب تلك العربة الكارو التي يجرها أحد الخيول.

انتفضت قلوب الرجال وانطلقت ألسنتهم في التسبيح والدعاء حين هاج الحصان وبدأ يرفس بقدميه الخلفيتين قوائم العربة الكارو محاولًا الفرار، فهشم قائمتيها الأفقيتين، وصاحبه يحاول إسكات صهيله المتزايد، ويحاول أن يحدثه وكأن الحصان يفهمه.

ـ "اهدأ! اهدأ! انتهت مرت بسلام.. اهدأ!"

نظر الحصان ناحية المشهد، فخُيِّل لمن يراه كأنه يتحدث ويقول:

"أين الذهاب بهذا الجسد!؟ الويل لمن يعلم ولم يتق الله ربه!؟"

انتفض قلبي أنا شخصيًا، فانسابت دموع الحسرة على خدي، وتزايد بكائي على ابني وأبي، ولم أعلم ماذا أفعل! أهذا حلم أم هي الحقيقة المؤلمة!؟

لم أعلم حتى الآن أن المفاجأة الحقيقية ما زالت في انتظاري؛ حين وصل جسد أبي لمقبرته، إحدى مقابر الصدقة ذات الدهان بالجير مصبوغ باللون الأخضر الفاتح، وعليها كمية من الغبار حالت دون تمييز اللون الحقيقي للمقبرة بوضوح.

بطرف عيني زاغ بصري وأنا أغلق باب المقبرة على أبي بعد أن دفناه بجانب الجثمان الوحيد بداخل المقبرة، لأرى شاهد القبر أمامي يلمع بياضه الرخامي تحت ضوء الشمس الساطع.

[محمد السيد وصفي]! ماذا!!؟ أهنا يرقد جدي!!؟

ـ "يا الله!!"

هكذا قلت لنفسي متفاجئًا بأن كل تلك المهاترات والفتنة التي كادت أن تحدث؛ لينام أبي في النهاية بجانب أبيه الذي دُفِن دون أن يعلم عنه أحد.

ـ "هكذا ظننتَ يا أبي.. ألم تعلم بأن الله يعلم السر وأخفى!؟.. يا الله رحماك!"

قلتها لنفسي قبل أن أجلس مباشرة على المصطبة الخرسانية المقابلة للمقبرة، ويحاول الناس تهدئتي، ولم أجرؤ يومًا أن أقول لهم ما علمته في ذلك اليوم.

أيام عصيبة مرّت عليّ بعد ذلك، لم يُخفف عني يومها إلا عندما رنَّ هاتفي في عصر اليوم، ففتحت الهاتف سريعًا قبل أن أجن عندما لمحت على الشاشة المضيئة اسم حماتي تتصل.

ـ "آلو... ما الأخبار؟؟ لقد كدت أجن لماذا لا تردون على الهاتف!؟؟"

ـ "اهدأ يا حازم"

قالتها لي قبل أن تتحدث فيما أردت سماعه منذ أن علمت أنها سقطت مغشياً عليها.

ـ "هيام حامل يا حازم"

لم أعلم أأفرح أم يمنعني حزني.. لم أعلم ما هو شعوري حتى سمعتها تتكلم.. لم أسمع أول الجملة حتى عدت إلى رشدي، فسمعتها تقول:

ـ "أعصابها متعبة بعض الشيء.. والطبيب منعها من أن تتحرك، ويعطيها بعض المهدئات، وهي الآن بخير.. أتريد أن تحدثها؟"

هززت رأسي وكأنها تراني، حتى قلت لنفسي:

"ما هذا الجنون الذي أفعله!!؟"

قلت لها:

ـ "أكيد"

ـ "ها هي معك"

قلت بلهفة:

ـ "هيام.. أنت بخير؟"

سمعت نهنهة باكية، وقالت بصوت ضعيف تخللته بعض الدموع التي شعرت أنها تحرق قلبي:

ـ "الحمد لله"

ـ "كيف حالك يا هيام؟؟"

ـ "الحمد لله بخير.. أنا حامل يا حازم"

ـ "مبروك يا حبيبتي.. فكرتِ بماذا سنسميه؟"

حاولت أن أخفف من حدة الموقف بسؤالي الغبي هذا، ويبدو أنها أيضًا تحاول تخفيف الضغط عني فتجاوبت معي:

ـ "لا أدري.. أنا أفكر في اسم (ساندي)؟ ما رأيك؟"

ـ "حلو جدًا.. لكن ما أدراكِ أنها بنت!؟ ماذا لو ولد؟؟ ما سيكون اسمه؟؟"

ـ "اممم لم أفكر حقًا في هذا.. أظن أن (هيثم) سيكون لطيفًا"

ـ "هيثم حازم وصفي"

قلت بنبرة المتعاظم مدعيًا الفرح.. وأكملت:

- "يبدو اسمًا جيدًا جدًا بالنسبة لي"

ساد صمت طويل بدا لي كالعمر كله، حتى سألت سؤالها الذي توقعته تمامًا وخشيت أن تسألني عنه:

- "كيف حدث هذا!؟"

ادعيت عدم الفهم فجاوبت:

- "لا أعلم؛ كانت حياتنا هنية.. في النهاية كان معك حق في عدم مجيئي إلى هنا يا هيام.. كان معك حق"

- "أقصد كيف حدث هذا يا حازم!؟ كيف مات مصطفى؟"

لم يكن في النهاية من السهل أبدًا أن أفر من الإجابة، فاستسلمت وبدأت أحكي لها ما حدث حتى وصلت للمستشفى، فقطعت كلامي وقالت:

- "أريد أن أراه يا حازم.... أريد أن أزوره"

- "نعم بالتأكيد.. نطمئن عليك أولًا وعلى ساندي ثم نفكر في الزيارة"

سكتت ولم ترد، فقلت لها مسرعًا قبل أن تفكر في شيء مجنون:

- "هيام.. هل مازلتِ معي!؟"

ويا ليتها لم ترد! قالت تمامًا ما خشيت أن أسمعه منها.

- "نعم أنا معك يا حازم.. سأحجز في أول طائرة وسآتي لأزوره.. إلى اللقاء"

حسمت الحوار، وأعلم تمامًا أنه لن يوجد على الأرض قوة تستطيع أن تمنعها، فخففت عنها مهمة محاولة إقناعي رأفة بتعبها ورحمة بها.

قلت:

- "نعم كما تريدين.. إلى اللقاء يا حبيبتي.. مع السلامة"

ردت:

- "سلام"

أغلقت الخط معي، فجاء حزني الذي أصبح في هذه الأيام جليسي الوحيد، وظللت ألعن اليوم الذي فكرت فيه أن أعود لتلك البلدة، وظللت أفكر وأفكر حتى استغفرت الله؛ فكلنا نسير لنهايتنا بخطوات حثيثة دون أن ندري، حتى نصل لنقطة اللاعودة حيث لن نستطع أن نغير تلك النقطة مهما بلغنا من القوة.

اكتفيت بالبكاء عندما أيقنت تمامًا بدنو الحساب وتصفية ما خاف منه والدي.. الكأس المر الذي سنشرب منه جميعًا إلا من رحم ربي.

بحثت عن تلك الورقة التي أعطاني إياها أبي فلم أجدها في أي مكان.. وقتها فقط علمت كل ما كان مدبراَ لي.. إنها المكيدة التي وقعت فيها كالصيد في الأسر.. كيف لم أفهم هذا منذ البداية!؟

أين ذهب عقلي!؟

خذلني ذاك اللعين وقت الحاجة.. في النهاية انتهى العويل فلا فائدة منه.. قلت لنفسي متصبراَ مشجعًا:

- "رُفعت الأقلام، وجفت الصحف"

AFbcU

# (٣٤)

انعكست أشعة الشمس على نظارة هيام السوداء، وألقت خلفها ظلًا أسود كلون الملابس التي ترتديها، وتضع على رأسها حجاباً يغطي نصف رأسها، أسود أيضًا، فبدت كالغراب في عتمة الليل، إن لم يكن يعرفها الرائي لشكَّ بأنها إحدى بنات الجان جاءت لتقبض أرواح الخائفين الذين انفطرت قلوبهم من صوت بكائها الناعم المتواصل.

نامت على كتف زوجها، فضمها حازم بين ذراعيه، وأخذ يمشي ببطء مبتعدًا عن المقابر التي حوت كل ما كان يتمناه من الدنيا وما عليها.

ـ "إنه قضاء الله وقدره.. احتسبي الأجر عند الله"

بصوت متقطع من البكاء ردت هيام وقالت:

ـ "الحمد لله"

آخر كلمات نطقتها حتى الوصول لشقتهم الخاصة بالمنزل الكبير في تلك البلدة. ساد صمت طويل لم يقطعه سوى صوت موتور السيارة يزمجر على الطريق غير الممهد وصولًا للمنزل.

يفتح حازم باب الشقة، لتدخل هيام، التي رفضت أن تسلم على نجلاء أو محمود وتعلن عن وصولها، ولم يشأ حازم أن يضغط عليها في أي شيء تريده، حتى تتأهل نفسيتها مجددًا لما هو قادم. تركها وشأنها حتى كسرت من نفسها حاجز الصمت الطويل فقالت:

ـ "حسنًا.. ماذا سنفعل الآن؟"

لم يفهم مقصدها فتساءل:

ـ "ماذا تعنين؟"

تجيب بشيء من العصبية ظهر بوضوح على نبرة صوتها:

ـ "ماذا سنفعل الآن بخصوص ما حدث؟؟"

ـ "وماذا علي أن أفعل!؟ لقد هرب السائق اللعين وأغْلقت القضية ضد مجهول فما عساي أفعل!؟ أأذهب للبحث عن شبح مجهول لا يعلمه أحد!؟ أم أجلس هنا لأندب حظي الذي رماني بغدره في مقتلي!؟"

ترد بعصبية شديدة:

ـ "لماذا أصبحت هكذا!؟ إنسانًا سلبيًا في كل شيء!!؟ لم أعهدك هكذا ولم أتزوجك لتصبح ضعيفًا كما أراك الآن، لا تريد أن تأخذ حقك ولا حق ابنك!!"

ـ "لم أكن يومًا سلبيًا يا هيام"

بعصبية يرد محاولًا إسكاتها، ثم تابع:

ـ "كيف لي أن آخذ حق ابني من شبح لم يعلم عنه الجميع أي شيء!؟ لقد هرب يا هيام! أخذ سيارته بعد الحادثة وهرب خوفًا!"

ـ " لا.. أنت لا ترى نفسك الآن.. أنت سلبي في كل ما يتعلق بعائلتك، وكأنك شخص آخر لا أدري من هو ولم أكن أراه فيك قبل الآن. ما هذا الغباء يا حازم الذي أصبحت فيه!؟ أنا أتكلم عن حقك الآن وحق ابنك في ما تركه لك أبوك! ألم تخبرني بسبب مجيئك في الهاتف وما أخبرك به أبوك!؟"

ـ "وهل هذا الوقت المناسب لمناقشة هذا الأمر!؟ ألا ترين ما نحن فيه من مصائب!؟"

تنظر مباشرة في عين حازم ثم تقول:

ـ "لا يوجد وقت أنسب لهذا من الآن"

بتعجب يسأل:

ـ "ماذا تقصدين!!؟؟"

ـ "أقصد أنك أصبحت أعمى ولا ترى ما يحدث من حولك!"

- "وماذا يحدث من حولي يا هيام ولا أراه!؟"

تشير بسبابة يدها اليمنى نحو باب الشقة الخارجي وتقول بصوت منخفض يحمل شيئًا من العصبية ولكنه حذر:

- "أين أخوك فيما يحدث!؟؟ ها!! أخبرني!!"

بحيرة يجيب بتساؤل آخر يزيد من عصبية هيام:

- "أخي!!؟ ما به!؟؟"

- "أنا أشك أن له يدًا في كل ما يجري"

بتعجب:

- "ماذا!!؟ هل جننت!؟ أنتِ لم تري لهفته على مصطفى في المستشفى.. لقد حاول أن ينقذه يا هيام، ولكن القدر كان قد قال كلمته!!"

- "ثم ماذا؟؟ وأبوك؟؟"

- "ما به أبي!؟"

- "يا حازم افهم بالله عليك! أخوك هو المستفيد الوحيد فيما يحدث.. ألم يحذرك منه أبوك!؟ أنت من أخبرني بهذا!"

- "نعم يا هيام حذرني منه.. ولكن حتى لو كان له يد في موت أبي إذن ماذا عن مصطفى ها؟؟ أخبريني الآن!"

- "أين الورقة التي قلت لي أن أباك أعطاها لك لتذهب به للمحامي؟؟"

- "الورقة!!"

وقع عليه هذا السؤال كالصاعقة المدوية؛ فبالفعل قد لاحظ اختفاءها في وسط كل تلك الأحداث التي ظلت تدوي بجانبه، ولم يعطِ ذلك الأمر الاهتمام الكافي.. فأكمل وقال:

- "لا أدري.. قد تكون سقطت مني"

ففاجأته وقالت بخبث:

ـ "أو سُرِقت"

ـ "ومن سيسرقها!؟"

ـ "أي شخص له مصلحة في اختفائها"

يقع حازم في حيرة من أمره، ولكن لم يشأ أن يعترف بقلقه أمام زوجته.

ـ "لم يعلم بها أي حد سوى أنا وأبي.. حتى محمود لم يكن بالمنزل من الأساس"

ـ "وزوجته؟؟"

ـ "كانت بشقتها.. لم تنزل منها أبدًا طوال ذلك اليوم"

ـ "هل علمت الآن لِمَ أقول لك انك أعمى عن كل ما يحدث من حولك!؟"

ـ "ماذا تقصدين!؟؟"

ـ "لقد رآها مصطفى يا حازم وأخبرني بهذا في الهاتف قبل مقتله.. رآها تتنصت عليكما"

نظر بتجهم ولم يستطع أن يجيب بشيء إلا بتجهم من وجهه، فأكلمت:

ـ "نعم، لا تتعجب هكذا.. لقد رآها وهو نازل من السلالم، وعندما أحست به أبدت توترها وحاولت أن تُخْفي فعلتها، فتلعثمت في الكلام، ولم يشأ مصطفى أن يزيد من إحراجها فسكت واصطنع الغباء، فسألته إن كان يريد أي شيء ولكن ابنك اكتفى بهز رأسه بالنفي.. لماذا كانت تتنصت عليكما يا حازم!؟"

ـ "لا أدري.. قد يكون مصطفى مخطئًا"

زادت حدتها في الكلام حينما ذكر اسم ابنها، وظنت أن أباه يعيب في حقه، فقالت بحدة:

ـ "لا تدافع عن الباطل أيها الأعمى!! ابنك ليس بمخطئ وأنا أدرى بنوعية تلك النساء؛ فلا تفهم الأنثى إلا الأنثى مثلها، أما أنتم أيها الرجال فتصطنعون أنكم تعلمون كل شيء، وهذا ما يزيدكم إلا بلاهة"

ـ "لا تخطئي يا هيام والزمي حدك معي! كل شيء جائز أنا لا أعلم"

فعادت لجملتها الأولى وقالت:

ـ "إذن ماذا سنفعل الآن؟؟"

ـ "سأتحدث معه.. لابد من ذلك.. سنجلس ونتحدث في كل شيء قبل موعدنا مع المحامي"

ـ "أي محامي!!؟ لم تخبرني عن ذلك!"

ـ "وكيف سأخبرك وأنت لم تعطِني فرصة حتى لأتحدث معك!؟ إنه محامي أبي طلب اجتماعنا بعد العزاء ليخبرنا بالوصية وحقوقنا وممتلكاتنا وما شابه ذلك"

ـ "حسنًا.. سآتي معك.. متى هذا الموعد؟؟"

ـ "إنه بعد الغد"

ـ "تمام جيد جدًا.. وليكن في علمك، أنا لا أثق في أخوك ولا في زوجته.. لم أثق بهما يومًا ولا أثق بهما الآن مهما ظهر منهما من أمان؛ فلا تُروض الحيات ولا تُربى الأفاعي"

يقترب منها حازم ويضم رأسها إلى صدره ويخبرها:

ـ "استريحي الآن يا هيام.. استريحي وأنا سأنزل لأتحدث مع أخي قليلًا"

ـ "حسنًا.. اعذرني يا حازم؛ أنت تعلم أني لا أفكر في هذا المال، لكنه ليس من حقك وحدك لتفرط فيه.. إنه حق مصطفى رحمه الله، ولن أفرط فيه حتى لو كان حقه بعض الغبار على باب شقة"

ـ "وأنا لن أفرط في حقنا يا هيام.. استريحي فقط الآن"

**قالها لتتركه زوجته وتذهب لغرفتها، تغير ملابسها وتتمدد على الفراش ناظرة بعينيها نحو السقف كأنها تتأمل في بنيانه، فيتركها حازم ويخرج من الشقة محملًا بالهموم التي تثاقلت على كتفيه، وحاملًا قلقه وضيقه على ظهره، ولم يكن يدري ما يحدث من حوله حقًا؛ فقد كانت زوجته محقة فيما قالت.. دومًا ما كانت محقة بأي أمر يخصه.. فقط هو من يتعالى بغبائه على الحقيقة التي أصبحت واضحة تتلألأ أمام عينيه، لكن قراره كان واضحًا.**

**تجنَّب المشاكل الآن، ودع الأحداث تأخذ مجراها، لنرى في النهاية ما ستؤول إليه الأمور.**

AFbcU

# (٣٥)

ثلاث نقرات خفيفة على باب الغرفة، ينتبه لها كلب حازم (الماستيف)، فينتصب على قدميه ناظراً للباب وقد علم أن سيدته بالخارج تَهِمّ بالدخول. ينظر حازم نحو الباب ويضع قلمه على يومياته التي لم ينتهي بعد من سرد أحداثها.

ـ "تفضل بالدخول"

تدخل هيام بابتسامة خفيفة على وجهها، وهي تحمل بيدها كوباً من الشاي وقطعتين من الجاتوه كنوع من الترفيه والتخفيف عن زوجها الذي لم يخرج من غرفة مكتبه طوال الخمسة أيام الماضية، قضاها في كتابة يومياته ومداعبة كلبه الوفي.. تنظر له وتقول:

ـ "كيف حالك الآن؟ تفضل.."

تضع كوب الشاي ببطء خوفًا من أن تنسكب منه بعض القطرات على اليوميات، ثم تضع بعدها طبق الحلوى، وتنظر نحو اليوميات لترى ما هو مكتوب بها يدفعها الفضول، بينما رد حازم:

ـ "أنا بخير الآن.. لقد أوشكت على الانتهاء منها"

تبتسم ولم ترد، فقط اكتفت بمتابعة كلماته التي كتبها بخطه الأنيق على الأوراق البيضاء، متابعًا هوسه الذي أثر عليه تمامًا وتملك عقله. وشد انتباهها ذلك الاسم الذي كتبه حازم، فسألته متعجبة وهي تنظر له، مما جعل القرط الذهبي المتدلي من أذنها يتحرك بخفة، وتعود تلك السلسلة حول رقبتها في وضعها الطبيعي بعدما كانت متدلية نحو المكتب عندما انكبت لقراءة كلماته:

ـ "لماذا تكتب اسمك وكأنك لست أنت من عاش تلك الأحداث!؟"

ـ "لم أفهم قصدك يا هيام"

ـ "أقصد لماذا تكتب (حازم) مثلًا و(هيام)!؟ لماذا لم تكتب (أنا) و(زوجتي)!؟ أنت من عاش الأحداث جعلتني أظن أن حازم الذي تتحدث عنه يومياتك ليس بأنت"

ـ "اممم فهمت قصدك.. لقد أردت أن أكون حَكَمًا يا هيام، والحكم يجب أن يُنزّه نفسه عن أي شعور داخلي يؤثر على مجرى الأحداث. فقط اكتفيت بأن أنظر لما حدث وكأنني من عالم آخر، وهذا أفضل يا عزيزتي.. ثم عامة بعض الأوقات أذكر شعوري الشخصي وأعود بجسدي داخل جسد حازم الذي أتحدث عنه وأندمج معه لنعود شخصًا واحدًا من جديد.. فصدقيني أنا حتى لا أعلم سبب كلامي بتلك الطريقة.. حتى أني عندما أعاود قراءة ما كتبته أتعجب أحيانًا من أشياء كثيرة كتبتها وأنا لا أعلم لماذا! أو حتى كيف!"

ـ "وجهات نظر.. لا أعلم.. المهم أن تنتهي"

ينظر حازم مجددًا لها، لينتبه لما ترتديه من ملابس سهرة.. فستانها الأسمر اللون الذي جعلها فاتنة من فاتنات هوليوود، وشعرها الذي انسجم مع قرطيها وانسدل على كتفيها بسلاسة ليُداري على عنقها الذي التفّت حوله تلك السلسلة الرقيقة التصميم التي طالما أحب أن يراها على زوجته، فأصبحت أمامه كلوحة فنية يعجز أمهر الفنانين عن تصويرها. نظر لها بشدة ودقق النظر، فاحمر وجهها خجلًا لذلك وقالت له:

ـ "ما بك!؟"

ـ "أبدًا.. لم أراكِ بهذه الروعة وهذا الجمال منذ فترة"

ـ "أنت من تحبس نفسك يا حازم.. سآخذ معي ساندي وكريم ونذهب لشقة لوسي صديقتي.. سأسافر معها يومين حتى ينتهي زفاف أختها، وبصراحة وجدتها فرصة مناسبة لك لتنتهي مما تفعل وتعود كسابق عهدك معنا.. أنتظرك بفارغ الصبر"

يبتسم، وأبدى موافقته:

ـ "حسنًا.. يومان كافيان لأعود كما كنت وأنتهي من مواجهتي لنفسي بتلك اليوميات؛ لعلي أعلم مواطن الخطأ فيما حدث.. أين الطفلان؟؟"

ـ "إنهما بغرفتي"

ـ "لم أعلم يومًا أن الله يحمل لنا كل هذا الخير.. الحمد لله"

ـ "كريم مثلك في كل شيء.. لم أكن أتخيل أني سأحصل على توأم بمثل هذا الجمال"

ـ "نعم نعم.. ومن كان يظن هذا!؟"

تدير له ظهرها وتمشي بخفة لتخرج من الباب.. واستدارت فجأة لتقول وكأنها تذكرت شيئًا:

ـ "صحيح.. لا تنسى أن تفتح بريدك الإلكتروني؛ الجميع قلق عليك وتتوالى علينا المكالمات.. أصبحتُ كمن يعمل في خدمة العملاء من كثرة ما تلقيت من اتصالات"

ابتسامة خفيفة خرجت بصعوبة بين شفتيه ورد:

ـ "حسنًا.. سأفتح البريد وأستقبل أنا المكالمات.. لا تغيبي علينا"

ـ "علينا!!؟ من أنتم!؟؟"

ـ "أنا وجاك الكلب"

قالها ولم يستطع أن يمسك نفسه من الضحك؛ فلقد كان متأكدًا من أن زوجته تكره هذا الكلب لكنها صبرت عليه لأن زوجها يحبه ولأن كريم قد تعلق به، فردت عليه بعد أن نظرت لجاك الذي لم يبد أي اهتمام لما يحدث من حوله:

ـ "حاضر.. لن نتأخر"

اقتربت منه وطبعت قبلة على خده الذي غطاه الشعر زاد بدأ نبته بشدة، فبدا أنه لا يراعي نفسه منذ زمن بعيد. تابعت كلامها:

ـ "وتخلص من هذه اللحية"

خرجت واغلقت خلفها الباب لتتركه في وحدته التي بدأ يألفها.. أمسك قلمه وأراد أن يتابع كتابه ولكن شغلته هيام بالرسائل التي توالت عليه فلم يتعود أبدًا على أن يدع أحد ينتظره كثيرًا لذا قال في نفسه..

ـ "سأرد على هذه الرسالة وأتابع ما كنت أفعل..

يفتح بريده الإلكتروني ليرى رسالة قادمة من تلميذته إيمي..

| * عزيزي حازم.. طالت علينا غيبتك وأقلقتنا عليك.. وتركت عندنا فراغًا كبيرًا بغياب محاضراتك ومناقشاتك في الندوات العلمية التي كنت تشارك بها عنّا؛ فما زال الجميع ينتظر محاضراتك بفارغ الصبر.. ما زال الجميع يذكر ما حدث لك وما زالت أنقل عنهم تعازيهم الحارة.. وإن أحببت أن أضْيف -وأخشى إزعاجك- فسأسألك عما تعلمته من تجربتك الحياتية السابقة. إيمي |
| --- |

لم يعلم حازم ما يقول، لكنه ضغط على زر الرد وكتب..

| * عزيزتي إيمي شكرًا لشعوركم الطيب نحوي.. وأبلغي الجميع تحياتي وبرغبتي في العودة أكثر منهم، وعن قريب سأحاول.. وأما إن أردت أن أرد عليك في استفسارك فإنني سأقول لك ما يلي.... إنها كانت تجربة أليمة تعلمت فيها أن الحياة إن لم نلحق بها ستمضي وتتركنا نلهث خلفها؛ فمحاولاتنا البائسة لنطفئ نار خطايانا هي أولى خطواتنا نحو الخلاص. حازم |
| --- |

يضغط حازم زر الإرسال، ويستند بظهره على كرسيه الجلدي المريح، وشرد الذهن لبرهة انتبه بعدها لكوب الشاي الموضوع أمامه، فتناوله بيده وبدأ يأكل

من الحلوى ويشرب شايه حتى انتهى منهما، فربت على رأس كلبه جاك قليلًا محاولًا أن يستجمع أفكاره من جديد.

يُمْسك مجددًا بقلمه ويمسح الصفحة البيضاء التي لم تمتلئ إلا ببعض السطور من حبر قلمه.. مسحة أخرى خفيفة ثم بدأ يكتب..

يكتب ما حدث..

AFbcU

# (٣٦)

توقف للحظة واحدة يستجمع فيها أفكاره من جديد.. ينظر من النافذة المجاورة على يساره نحو حديقة منزله، والقمر الذي تلألأ بدرًا أمامه كأنه شاهد على ذلك العصر؛ فلكم كان يحسد ذاك المخلوق الرائع الذي لم يَخْبُ جماله ولم يبخل بضيائه على أحد مهما بلغ من السطوة ومهما انغمس في خطاياه.. ظل يتأمل ذلك البدر الذي تخيل تضاريسه فيه كصورة وجه ينظر إليه بعينين جامدتين لا حياة فيهما، كنظرة أخيه الذي ما زالت ترعبه في أسوأ كوابيسه.. كلما تذكرها انتفض من نومه فزعًا من ذلك الكابوس الذي ظلَّ يراوده كثيرًا ويعاوده مجددًا، حتى اشتكى منه ولم يستطع أن يتابع حياته مرة أخرى، وظل يتعذب ليال يجافيه فيها النوم خوفًا من ذلك الكابوس، حتى عرضت هيام عليه أن يذهب لطبيب نفسي يؤهله للعودة لواقع الحياة كما كان سابقًا.

أبدى اعتراضًا شديدًا على ذلك الأمر ولم تعجبه الفكرة، ولكن في النهاية أذعن لإصرار زوجته، وكانت أول مرة ذهب فيها لفرانك الذي يعمل كطبيب نفسي في المنطقة المجاورة قريبًا من مركز المدينة.. لم يعجبه فرانك في البداية؛ لأنه لم يتعود أن يُفْصح عمّا بداخله، وظنَّ أنه مجرد متطفل آخر دخل حياته، ولم يعرف أن القدر قد خبأ له أخًا عزيزًا يعوضه عن لعنة أخيه السابق.

وكم من أخ لك لم تلده أمك!

ظلّوا يجيئون ويذهبون معًا في كل وقت، وتعدى الأمر مجرد علاقة بين طبيب ومريضه، الأمر الذي أعجب هيام، التي رأت لأول مرة منذ الأزمة السابقة زوجها يمدح في شخص وجد فيه نفس تهافت العلم وتقابل الأفكار.

ابتسمت عندما تحدثوا على العشاء منذ أسبوعين في منزلهما عن أول مرة زاره حازم فيها، وتوتره الذي انتقل بدوره للطبيب، الذي حاول أن يُخْفي قلقه من نظرة اليأس بعيني حازم.

يومها سأله فرانك محاولًا بدأ الحوار:

- "حسنًا يا حازم.. مم تشكو؟"

- "لا شيء يا دكتور"

ابتسامة خفيفة ارتسمت على محيا فرانك، فتابع:

- "لماذا إذن جئتني؟"

سكت حازم وأمال رأسه نحو السقف المقابل للشيزلونج الممدد عليه، فتابع فرانك حديثه وقال:

- "ينبغي عليك أن تُصارح نفسك يا حازم قبل أن تُصارحني لنجد أصل المشكلة التي تعاني منها.. أنت رجل متعلم، وتعلم أنك هنا لتقابل رجلًا يحاول مساعدتك لا ليتطفل عليك"

نظر متعجبًا لفرانك وتساءل في نفسه كيف قرأ أفكاره بهذه السرعة! كم كان يمقت ذلك! ولكن في النهاية استسلم.. بدأ يحكي له عن ذلك الكابوس الذي يراوده دومًا.

- "أرى نفسي مع امرأة أحبها، وفي الحلم أقنع نفسي بأنها أمي.. كيف كانت تحتضني حتى لأشعر بدفء ملمسها، ثم لا أعلم ما يحدث فأجد نفسي أنهار باكيًا عليها وكأني كنت في المقابر، وذلك القبر المفتوح والأكفان البيضاء ممددة بداخله ساكنة في خشوع مهيب، إلا ذلك الكفن في جانب القبر الذي بدأ يتلوى.

ظننت أنه حي قد دفنوه بالخطأ، فقررت أن أدخل هذا القبر محاولًا إنقاذه. وبتوتر شديد وجسمي يتعرق بشدة والدموع تنهمر من عيني، بدأت أخطو وسط الجثث وأتخطاها بصعوبة.. كنت أتعثر في الخُطى من شدة الزحام، حتى التمست بقدمي العاريتين اللتين لم أكن أنتبه لهما من قبل ذلك السائل الأسود الساخن.. انحنيت أتلمسه فإذا هي بدماء.. ثم ينغلق القبر فجأة وأختنق من قلة

الهواء والظلام، حتى تعتاد عيناي على تلك العتمة لأنتبه لذلك الكفن الذي ما زال يتلوى بعنف.

أقترب منه علّي أجد من يؤانسني تلك الوحشة..

أقترب ببطء لأكشف عن وجهه، فإذا هو أخي ينظر إلي بوجه ملطخ بالدماء، وبتينك العينين الجامدتين، ثم يصرخ بوجهي، فأستيقظ وأنا أشعر بأن أنفاسي قد سُلبت مني.. ولمّا تكرر معي ذلك الحلم، أو قل الكابوس إن شئت، تكرر أكثر من مرة، اقترحت عليّ زوجتي أن أحضر لك.

أبدى الطبيب اندهاشه وحاول مجددًا أن يُخْفي ذلك التوتر بداخله، بالرغم من القشعريرة التي سرت في جسده من ذلك الكابوس المخيف.

ظلّ مرة في مرة يتردد عليه حتى صارا أصدقاء، فتطورت بينهما العلاقة وصارا كالأخوة. كان فرانك هو الآخر يُحاضر في أكثر من ندوة ولقاء علمي حول السيكولوجيات والنفسيات الإنسانية المعقدة، حتى جاء ذلك اليوم على العشاء الذي اقترح فيه (فرانك) على حازم أن يدون يومياته أو مذكراته حسب ما يتذكر من أحداث، وأن ينظر للأمور على وجه مختلف.

أنكر حازم قدرته على كتابة مثل هذا الأمر؛ لصعوبة إخضاع العقل البشري لتذكر أدق تفاصيل الحياة، ولكن فرانك أقنعه أن كل شيء ممكن، فقط بالمحاولة والمثابرة ستجني ثمار تعبك، وإن لم يكن من أجلك فاعتبره تخليدًا لذكرى مصطفى الذي شارك بأحداث واشترك بظلم لا جمل له فيها ولا ناقة.

اقتنع حازم في النهاية، وها هو الآن يجلس على نفس ذلك الكرسي الذي ما فارقه طيلة الفترة السابقة، وهو يكتب محاولًا إخضاع عقله ليلبي نداءه.. يعتصر ويضغط عليه متجاهلًا ذلك الصداع الذي ظل ينبض في منتصف جبهته وينزل على عينيه، ويقاوم رغبته في الكف عن الكتابة والاكتفاء بهذا القدر.. يُمْسك مجددًا القلم.. وبدأ يكتب...

"في ظهيرة ذلك اليوم الذي ما عدت أذكر موضعه من الأيام في عمر الدنيا، ولكن مازلت أتذكر لفحة أشعة الشمس على وجهي، التي انتصفت في كبد السماء لتُغْرق الأرض بحرارتها الشديدة، حتى أصبحت حديقتنا الأمامية تحترق أكثر من نصفها بقليل بتلك الحرارة المهلكة، إلا في ذلك الجزء البعيد تحت شجرة التوت التي نبتت بها الوريقات التي تحجب عن المصطبة الرخامية الشمس، مما وفر بعضًا من الظل الذي ساعد على ترطيب الجو، مع النافورة التي بدأ رذاذ مياهها يساعد بدوره على الإحساس ببعض الهدوء، الذي انسجم معه محمود بشدة، فقرر أن يتمدد فجأة على تلك المصطبة محاولًا أن يسترخي.. ولم أعلم كيف يسترخي في ذاك الوقت!؟ ولا أعلم كيف وقفت أمامه تلك الدقائق المعدودات التي بدت كساعات طويلة.

ظللت أقف كأني أراقبه، ولكن الحقيقة هي أن عقلي استولى تمامًا على جسدي ووضع غشاءَ خفيفًا على عيني فلا أرى بهما أي شيء.. إنه السرحان من كثرة التفكير، فكنت كالذي يتحرك وهو نائم، لا يرى ولا يشعر، ولكنه يستجيب لعقله.

ظللت أقف هناك أستجمع أفكاري المبعثرة من ثنايا عقلي، وأفكر في أنسب طريقة أتكلم بها مع أخي؛ فمازلت أستشعر بعض الحرج، وأعلم من داخلي أن الأمر يتوجب بعض الحيطة.

اقتربت من المصطبة لأنزل من الممر المبلط إلى الأرض الزراعية، التي تم وضع بها بعض الأشجار لتُضْفي جوًا من البهجة والظل في المكان.. وقد فَشلتْ في ذلك! فظل المكان على كآبته المعتادة؛ حيث يكمن السر بأن المنزل بساكنيه وليس بمكملاته.

أيًا يكن، فقد اقتربت منه وناديت عليه بصوت منخفض.

لم يُجبني في أول الأمر، لم أعلم أنائم هو أم لا يريد أن يتحدث معي، فكررت ندائي، الذي انتبه له وقام وجلس.. بادرته بالسؤال:

- "هل أنت نائم؟"

- "غفوت قليلًا.. مازلت أحب أن أغفو في هذا المكان منذ صغري"

ضحكة خفيفة منافقة بدرت مني في تلك اللحظة، محاولة باطلة مني لتخفيف حدة الحوار الذي ظننته سيبدأ بين لحظة وأخرى.

- "نعم ما زلت أذكر ذلك كأنه حدث منذ دقائق وليس أكثر من عشرين عامًا"

- "أحقًا مرت كل تلك المدة!؟ لا أدري، لقد كبرنا حقًا يا (حازم)"

- "نعم نعم.. الحمد لله على كل حال هذه سُنة الحياة يا (محمود)"

- "نعم "

وحرك رأسه ليبدي موافقته على مقولة أخيه.

- "كيف حالك هنا؟"

- "بخير.. وأنت؟"

- "هذا منزلي، فطبيعة حياتي هنا.. أنت الذي أسأله؛ فقد تكون غير مرتاح على وضعك الجديد"

- "منزلك!؟"

قالها حازم باستهجان ثم تابع.

- "عمومًا أنا أجلس في شقتي أو في الجزء المخصص من المنزل لي.. قد اعتاد عليه وقد أرحل وأعود له مجددًا"

- "أي شقة يا (حازم)!؟"

مبديًا تعجبه وهو يسأل.

- "شقتي يا (محمود).. شقتي التي أعطاني إياها أبي!"

- "أنت مخطئ يا عزيزي"

ـ "ماذا تقصد؟؟"

ـ "أبوك كتب هذا المنزل باسمي.. وقال لي "استقبل حازم"، فأنت ضيفي.. اجلس ما شئت فيه؛ فبيت أخيك مفتوح دائمًا لك.. أو عد من حيث أتيت هذا الأمر يعود لك"

تعجب حازم ووقع تحت صدمة، لم يعلم ماذا يفعل أو ما يقوله.. فكر قليلًا ثم قال بتوتر:

ـ "كيف يكتب لك هذا!؟ إنه حقي يا (محمود)"

ـ "وكيف يكون حقك!؟ أنا من تعب في كل شبر من هذا المال وكبّرته وعملت فيه منذ نعومة أظافري، وأفنيت عمري حتى رأيته ينمو.. هذا حقي بالكد والتعب، ولن يشاركني فيه من جاء ليرث ما ليس له بالساهل!"

ـ "هذا حقي بالميراث.. أنت عملت فيه تحت اسم أبي؛ فهو لنا في النهاية"

ـ "أنا لا أعلم شيئًا يا حازم سوى ما كتبه أبي لي وعملت فيه.. لذا فكل واحد منّا له ما عمل به وكدَّ فيه.. أليس كذلك؟"

ـ "الشرع ليس مشروطًا يا محمود"

ـ "وأنت لست فقيهًا يا حازم.. معلوماتك لا تتعدى معرفتي فلا تتباهى أمامي بما ليس لك به علم؛ ففاقد الشيء لا يعطيه"

ـ "لست فقيهًا، أنا أعلم ذلك، ولكني لست جاهلًا أيضًا"

انتبه محمود لتلك الكلمة واعتبرها إهانة شديدة له؛ فعدم إتمامه لتعليمه ولَّد بداخله عُقدة نقص تجاه أي متعلم. انتصب واقفًا وهو يقول:

ـ "ماذا تقصد بـ(جاهل) يا حازم!؟ من هو الجاهل فينا!؟ الجاهل هو من لا يعلم أي شيء عن ماله ولا يعلم كيف يُدير ذلك المال.. أنت لا تعلم شيئًا فماذا تفيدك تلك الفلفسة التي تعلمتها"

"(فلفسة)!! هكذا نطقها"

ـ "كلنا جاهلون فيما لم نتعلمه يا محمود"

انتبه محمود أن نجلاء تتابعه من الشرفة المقابلة لتلك المصطبة، ثم اختفت فجأة فعلم وتأكد أنها قادمة، فأراد أن ينهي الحوار فقال:

ـ "غدًا موعدنا مع المحامي يا حازم.. أنا لا أعلم إلا ما عملت به"

رد حازم بعصبية:

ـ "نعم أنا أثق تمامًا بأن أبي لن يهضم حقي.. وعمومًا أنا لن أفرط فيه"

رد محمود عليه بعصبية وهو يضع قدمه على الأرض بعد أن كان يستند عليها فوق المصطبة وقال:

ـ "أتهدد أخاك الكبير!؟ أنت الذي رحل ولست أنا، ولم يُجبرك أحد على ذلك!"

ـ "نعم أنا من رحل والجميع يعلم ذلك.. وهذا لن ينفي أبدًا حقيقة أني ابن عبد السلام وصفي، ولي حق فيما ملكه مثلك تمامًا"

تدخلت نجلاء في تلك اللحظة وهي قادمة بصوت عال:

ـ "هذا إن كان يملك شيئًا!"

بحدة وتعجب يرد حازم:

ـ "ماذا تقصدين!؟"

ـ "إن كان أبوك يملك شيئًا فرثه.. هذا حقك"

لم يعلم حازم فحوى كلامها، فقرر أن يقوم من مقامه دون أن ينبس ببنت شفة؛ فهو لم يعلم ماذا يفعل أو ماذا يقول، ولم يحب فكرة أن يتدخل أحد بينه وبين أخيه.

انتظرت نجلاء هروب حازم الذي سمته هروبًا من أمامها، وهو يمشي الهوينة مطأطأ الرأس ويداه معقودتان خلف ظهره.. إنها تراه يبتعد حتى اختفى عن

ناظريها ودخل المنزل ليصعد لشقته، حينها فقط لكزت نجلاء كتف زوجها الذي نظر إليها، فقالت له متابعة:

ـ "ما رأيك؟؟"

لم يفهم محمود ولكنه حاول أن يستذكي فقال:

ـ "ماذا تقصدين!؟ كلام حازم عن الميراث لا تخافي منه؛ فلن يأخذ أحد أكثر من حقه إن كان له حق"

ـ "لا يا غبي.. أنا أقصد أن نُكْمل خطتنا الآن؛ فهذا هو الوقت المناسب تمامًا لنضرب الضربة القاضية ونفوز بكل شيء"

ـ "ماذا!!؟ هل تقصدين...!؟"

لم يُكْمل محمود الكلام فأطرق رأسه خوفًا من نطق الكلمة، فاقتربت حينها نجلاء منه وهمست بصوت شيطاني في أذنيه:

ـ "نعم.. حان الوقت لنتخلص نهائيًا من حازم لتنتهي كل أمواله إليك"

ـ "وهيام؟؟"

ـ "ما بها!؟.. سنترك لها نصيبها ونأخذ الباقي.. ما الضرر في ذلك!؟ الآن لا يوجد له ولد ولا وريث شرعي سواك.. وأراهن أنه يكنز في البنوك ما يكفينا ويكفيه مجتمعين عمرنا كله، ومع ذلك يطمع فيما تملكه أنت ويهدد ويتوعد.. يا له من جشع!"

سكت قليلًا فتابعت كلامها:

ـ "ثم ماذا يقلقك هكذا؟ أحنَّ قلبك!؟"

سكت قليلًا، وقال معاتبًا نفسه بصوت منخفض بدا لنجلاء همهمات غير مسموعة:

ـ "ومن ذا الذي سيحن قلبه بعدما ذاق طعم الدم!؟"

نعم إن ذاق قلب الإنسان طعم الدم ستتولد بعينيه تلك النظرة الجامدة، وذلك القلب الجافي، حتى إنك لتعرفه بمجرد نظرة واحدة لعينيه.. إنه يبدو كالكتاب المفتوح، وبالأخص مع أولئك المخطئين.

لم تفهم نجلاء من تلك الهمهات شيئًا، فقالت مستوضحة:

ـ "نعم.. ماذا قلت!؟"

رد عليها:

ـ "ولكن ذلك سيُثْير الشبهات.. ونبدأ في القيل والقال"

ـ "أي شبهات تقصد!؟ خرج لص ليسرق حازم ولم يجد معه شيئًا، أو اختلفا في القتال فطعنه اللص وقضى عليه.. ما ذنبنا نحن الآن!؟"

ـ "أي لص!؟"

ـ "أي قاتل مأجور يا محمود.. فالمال يُميت الضمائر ويشترى كثيرًا من النفوس الضعيفة"

أشاح بيده بعيدًا وهز رأسه رافضًا تلك الفكرة وقال:

ـ "لا لا لا.. لن أدفع مليمًا واحدًا لرجل ما ليبتزني بما يعرف بعد ذلك وندخل في دائرة لا فكاك منها"

صمتت قليلًا وكأنها استوعبت الأمر فجأة.. ثم قالت:

ـ "حسنًا.. فلتفعلها أنت"

ـ "ماذا!؟ لا أستطيع!"

ـ "وما يمنعك!؟ لا تكن جبانًا واعلم أن الفرصة لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، وها هي أمامك، فلا تركلها بقدميك بعيدًا عنَّا!"

ثم اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وقالت متابعة:

ـ "هل ستدعها تُفْلت منك!؟"

- "لا"

قالها وهو يهز رأسه بعنف، فتابعت وهي تعلم أنها بلغت من زوجها ما ترغب:

- "لماذا إذن كل هذا الوجوم!؟"

سكت فجأة عن الكلام، فهمست بصوت منخفض كأن الشيطان نفسه ترك ما بيده ولم يعد يهمه أمراً سواها، تلبّسها لتنطق بذاك الصوت المخيف:

- "لتفعلها إذن اليوم!"

- "ماذا!؟ كيف هذا!؟"

- "ترقبه وهو خارج يصلي الفجر.. إنه يسلك طريق الترعة القديمة المقطوع، فتربص له هناك واقضِ عليه"

- "وكيف عرفتِ كل هذا!؟"

ردت باعتزاز:

- "أولًا: أنا لست غبية مثلك"

أصدر محمود صوتًا مستهزئًا ومبديًا رفضه لما تقول، فلم تهتم وأكملت:

- "ثم ثانياَ رآه عثمان وحكى لي وهو يقوم بتركيب أنبوبة الغاز أول أمس.. واستعجب كيف لا يخاف الجنية التي تسكن الترعة وما إلى ذلك من الخرافات.. أنت تعلم عقل عثمان"

- "وماذا يفعل عثمان هناك أساسًا؟؟"

- "إنه يذهب هناك كل ثلاثة أيام.. يدعي أن لقمة العيش تقضي أن يُضحي بحياته ليواجه تلك الجنية لو اعترضته ليذهب لمستودع الأنابيب في الجهة الأخرى من البلدة.. وحسنًا لا تنظر لي هكذا.. كان هناك منذ يومين، لذا فهو سيذهب غدًا، فالطريق خال لك اليوم"

بدا محمود مقتنعًا تمامًا، فأطرق رأسه ولم يجب بشيء. وعلمت نجلاء أنها وصلت لما تريد الوصول إليه تمامًا، فقامت لتعد طعام الغداء، وتركت محمود في حيرته وهو يتمتم في نفسه:

ـ "نعم إن معها حق"

سكت قليلًا ثم قال بعينين ملأهما الحقد والجشع:

ـ "إذن سنفعلها الليلة!"

AFbcU

# (٣٧)

في تلك الليلة وقد غشي الظلام ولفَّ المكان، الذي أصبح في ظلمته كالصندوق المغلق لا يرى الرجل يديه إن أخرجها أمامه. هكذا إذن الحياة وهذا هو القدر، إنه يُهيئ كل الظروف المواتية لشخص ما حتى تساعده في تحقيق أمانيه، وهؤلاء الذين ينتبهون له فقط هم من يستحقون النجاح وأن ينالوا الفرص المتوالية؛ فالفرصة في حد ذاتها لا تُفرّق بين مخطئ ومصيب، ولكنها تأتي من ذاتك أنت، لتخرج إلى النور وتنتظر منك أن تستجيب لها.. وكيف لا، وهي في الأساس ذاتك التي صنعتها أنت وهيأت لها كل الفرص لترى تلك الحياة التي صنعتها لها!؟

أظلمت الدنيا في تلك الليلة، واختفى القمر، ولا أحد يدري لِمَ لم يظهر في تلك الليلة التي غشتها الغيوم.. أخجلًا من أن يرى ما نوى أن يفعل هذا الشخص الملثم، الذي لم تظهر من تقاسيم وجهه سوى تلك العينان الجاحدتان تحملان كل قسوة الدنيا!؟ أم أنه اتفق معه!؟

حسنًا لا هذا ولا ذاك؛ فقط إنه آية من آيات الله، لا يساعد مخلوقًا ولا يخجل من فعل ما، وإلا لما رأيناه يظهر ببهائه في حياتنا المليئة بالخطايا.. إنه فقط يشع جماله على الجميع دون أن يهتم بأي أحد.. وقد يكون هذا سر جماله.

ها هو الشخص الملثم يختفي خلف تلك الشجرة على ضفة الترعة القديمة، تلك المنطقة الملعونة التي يزعم الناس أنهم رأوا الجنيات والجن يسكنون بها، ولم يعلموا أن الجنيات إن كان لها وجود ما تكن لتظهر في مكان به بشر خوفًا على نفسها من أن تحرقها نار الفتنة. تخفَّى ذلك الشخص جيدًا؛ جلباب أسود يغطي معالم جسده إلا كف يده اليمنى التي خرجت من خلف ستارها تحمل بيدها خنجرًا على شكل هلال، لم أعلم كيف يُحاكي صانع هذه الأداة جمال هلال القمر في السماء!؟ كيف يستوي الجمال مع أداة تستخدم ليُفْعل بها تلك الأفاعيل!؟

يلمع حد الخنجر في الظلام من حدته، يحمل معه كل شر الدنيا.. ذلك اللثام الأسود الذي غطى أكثر من نصف وجهه، لم تظهر منه سوى العينان ظنًا منه أنه هكذا تخفَّى ولم يعد هناك من يراه، ولم يعلم أو قل قد نسي بأن عين الحق لا تنام. تَخفَّى بلثامه وانتظر..

لم يمر الكثير من الوقت حتى نادى المنادي:

ـ "الله أكبر.. الله أكبر"

قال الرجل في نفسه.:

ـ "ها هو الوقت قد حان وأذَّن الفجر.. أين هذا اللعين!؟"

ـ "الصلاة خير من النوم.. الله أكبر"

وقتها ظهر شبح يأتي في الظلام، يمشي بهدوء وكأن القدر يناديه.. إنه يراه يقترب، ولكن كيف يتأكد من أنه المطلوب.. تذكر أن لا أحد يمشي من هنا في هذا الوقت سواه.. اطمأن رأيه، وانتفض قلبه الذي كادت دقاته المرتفعة أن تفضح مكانه.

أمسك الخنجر بقوة وقربه من قلبه كأنه يستمد منه قوة خفية.

ها هو يراه يقترب.. تكاد تظهر الملامح قليلًا.. يبدو من الملامح التي يراها أنه هو الشخص المطلوب.. هل حانت اللحظة؟؟

يشد بيده بقوة على الخنجر، وينتظر..

مر الشبح من جانب الشجرة التي يختبئ خلفها الرجل بخنجره الحاد.. يتحرك الرجل بهدوء حتى صار خلف الشبح، ويمد يده التي يلمع بها الخنجر الجاهز لتنفيذ حكم القدر!

ـ "ما هذا!؟"

قالها لنفسه قبل أن يختبئ مجددًا خلف الشجرة، عندما سمع ذلك الصوت الذي يضرب من بعيد.. إنه صوت احتكاك الحديد في عراك مع بعضه عندما تجري تلك العربة الحديدة التي يجرها ذلك الحمار المسكين الذي فاق الحمل احتماله.

اختبئ الرجل قبل أن يراه ذاك القادم، حتى ظهر أمامه ووقف أمام الشجرة ونادى على الشبح:

ـ "من أنت؟ وماذا تفعل في هذه المنطقة المقطوعة؟"

رد الشبح بهدوء:

ـ "مرحبًا.. أنا حازم وصفي.. ذاهب لأصلي الفجر.. وأحب أن أمر من هنا كل يوم ولا أرى أحدًا.. من أنت؟؟"

ـ "أهلًا أهلًا بالرجل ابن الحبايب.. أنا عمك (علي عرفة).. تعال سأوصلك للمسجد"

ـ "لا يا عماه.. لا داعي لأتعبك معي"

ـ "لا تقلق؛ أنا اتخذت هذا الطريق اختصارًا على هذا الحمار العجوز"

وجه حازم نظره للحمار، الذي يئن من ذاك الحمل الرهيب في تلك العربة التي وزنها وحده على ذلك الطريق غير الممهد كانت كافية لتقسم ظهره، بل كان يكفي من الحمل ذلك الرجل الذي يركب فوق العربة بوزنه الزائد وجسده، الذي بان على وجهه آثار التعب والإجهاد من العمل المتواصل في ذلك الحقل.. يبدو أنه جمع البرسيم كله من الحقل على هذه العربة.. جبل من البرسيم، والحمار المسكين يئن تحت عرجته الواضحة.. لم يرغب حازم أن يضيف على معاناة الحمار وزنًا إضافيًا آخر.. فرد عم علي مخرجًا حازم من حيرته:

ـ "تعال يا حازم يا ولدي.. اركب.. لا تحرمني من أجر أن أصل بك للمسجد وأنا قدم في القبر والأخرى ثابتة في هذه الدنيا بصعوبة.. أنا في عرض أي حسنة لوجه الله"

ابتسم حازم ومد يده يسلم على الرجل.. مدَّ الرجل يده وسلم على حازم، الذي بدا أنه تألم تحت هذه اليد القوية التي شققها العمل المضني.. ضغط على يد حازم كما هو المعتاد في سلام الرجال، مما زاد من ألم حازم، وتعجب من شدة ما

يعاني هذا الرجل في العمل بتلك اليد التي تغطيها التضاريس والتشققات السوداء من طين الأرض، وتعجب أكثر عندما رأى مثل ما وجده في يده على وجه الرجل.. لم يعلم كيف أثرت هذه اليد في عملها على تشكيلات الوجه!

"هذه يد يحبها الله ورسوله"

ابتسم حازم وقال:

ـ "شكرا لك"

حينها لطم الرجل الملثم على خده وقال في نفسه:

ـ "نعم، من حقك أن تشكره؛ فقد أجل عمرك يومًا آخر.. قد لا أظنه يأتيك"

والأعمار بيد الله! عم علي لم يؤجل أجل حازم؛ بل فقط لأن الحازم لم يحن موعده بعد.

انسحب الرجل بهدوء ناحية ذلك المنزل الكئيب.. خبطات على باب الشقة، لتفتح نجلاء وتنظر لزوجها الذي بدا كاللهو الخفي، فاستبشرت خيراَ وقالت:

ـ "هل تم الأمر؟؟"

صدمها رد زوجها الذي قال:

ـ "لا"

ثم جلس يحكي لها كل ما حدث.. لعنت نجلاء القدر والحظ والظروف، ولعنت حازم وكل الناس، حتى كادت تلعن نفسها من شدة الغضب.

لم يتكلم محمود، حتى قالت له:

ـ "حسنًا حسنًا.. غدًا يتم الأمر"

رد محمود:

ـ "لا نستطيع؛ غدًا موعد المحامي، وقد يلفت ذلك الأنظار إلينا.. سننتظر حتى يهدأ الأمر وتبعد عنَّا الشكوك"

ـ "امم... وما العمل؟؟"

ـ "وأين سيذهب!؟"

سكتت قليلًا؛ فهي تعلم أن محمود معه حق في النهاية.. ردت وقالت:

ـ "حسنًا.. لنرى ما سيحدث غدًا"

تركته وقامت وهي على يقين تمامًا كما يوقن الجميع.

أين سيفر الرجل من قدره المكتوب!؟

AFbcU

# (٣٨)

دقات متتابعة على جرس المنزل.. حاول أن يتجاهلها وقال في نفسه:

ـ "سيَملّ ويرحل"

أتم تجاهله، ولكن الطارق ذا نفس طويل، فظل يتابع الضرب على الجرس والنقر على الباب.. اضطر حينها حازم أن يقوم من على مكتبه تاركًا الورقة البيضاء أمامه بجانب كتاب لـ(رينيه ديكارت) والذي تراكمت عليه طبقة خفيفة من الغبار.. يفتح الباب على مضض، لينظر للطارق مبديًا مدى استيائه من قدومه في تلك اللحظة.. رد عليه فرانك حينها وقال:

ـ "جلبت معي العشاء.. أعلم أنك وحيد الآن وجئت لتسليتك"

تبع جملته بابتسامة خبيثة؛ فهو يعلم تمامًا أن الوحدة لتجميع أفكاره هي كل ما يحتاجه حازم في تلك الفترة. نظر له حازم ولم يدر ما يقول، ولكن فرنك قد سبقه بخطوة بالفعل، فدفع يده من على الباب ودخل الشقة حاملًا طبقين من البيتزا الإيطالية.. نظر لحازم الذي لم ينطق بجانب الباب المفتوح:

ـ "اغلق الباب وتعال هيا.. ستبرد البيتزا"

أغلق حازم الباب بعنف وقال لفرنك:

ـ "لا أريد أن أكون فظًا يا فرانك.. ولكن أريد أن أبقى وحدي قليلًا.. أنت من أوصاني بذلك وأن أبعد عن ضغوط الحياة"

ـ "نعم أنا من قال ذلك"

نظر حازم له وأشاح بيده كأنه يريد أن يتابع معه ويسأله "وماذا بعد!!؟"، ولكن اكتفى بحركة يديه يعبر على عجزه عن إيجاد الكلمات المناسبة.. تابع فرانك كلامه:

ـ "ما الذي يضره تغيير (الموود)!؟ تعلَّم أن تستمتع بكل لحظة تأتيك وكُفّ عن التذمر؛ فلربما تكون آخر لحظة في حياتك.. لماذا إذن ستقضيها في التعاسة!؟"

تمتم حازم بداخله بكلام غير مفهوم، حتى سحبه فرنك من يده وفتح البيتزا وناوله شريحة منها وقال وهو يفتح التلفاز:

ـ "كيف حال مذكراتك يا حازم؟"

ـ "بخير"

هكذا رد بفتور.. ضحكة خفيفة خرجت من فرانك وقال:

ـ "أنا لا اسألك عن صحتها.. أنا أسألك كيف وماذا أنجزت فيها؟ أنت لا تتعلم بسهولة يا حازم"

ـ "لماذا تقول هذا يا دكتور!؟"

ـ "قل لي (يا فرانك) بدون ألقاب يا صديقي.. ثم أنا مرآتك، إن لم ترى انعكاس شخصيتك الحقيقية فيها فأنا لا أستحق صداقتك"

ـ "حسنًا حسنًا.. مازلت أحارب ذاكرتي، ومازالت تخونني دائمًا، فلا أتذكر أغلب الأحداث.. لم أكن أعلم أن الكتابة بهذه الصعوبة"

جلس بجانبه على الأريكة، وتناول شريحة أخرى من البيتزا، وبدا أنه بدأ ينسجم مع الجو ويستمتع، ثم تابع وهو يحرك يده ويشير للثلاجة:

ـ "ثم لا مانع من فاصل حتى تستطيع المتابعة من جديد.. سأحْضّر لنا مشروبًا غازيًا من الثلاجة"

يفتح فرانك الثلاجة ويتناول مشروبين غازيين، يناول أحدهما لحازم ثم يقول:

ـ "لا يجب أن تكون الكتابة بمثل صعوبة التفكير.. يجب عليك فقط أن تدع القلم يجري، وهو يعلم ما يقوم به جيدًا"

ـ "لم أفهم شيئًا.. ماذا تقصد؟؟"

ـ "أقصد أن القلم خُلِق قبل الإنسان، لذا فحكمته أكبر منك.. دعه فقط يتحرك كما يريد وهو سيستحضر كلمات أنت نفسك تتعجب بأنك كنت تملكها يومًا.. أنا نفسي لا أعلم من الذي يحرك الثاني؛ حينما أكتب يتحرك القلم وكأنني أنا الأداة.. يتحرك معلنًا عن شخصيته وكأن الكلمات تنبع منه وليست مني؛ فأنا لا أعلم كيف أكتبها وكيف أجدها في نفسي.. أما هو فيعلم تمامًا ما عليه فعله، لذا أنا أظن أن الكاتب ما هو إلا وسيلة ليعبر بها القلم عن أحاسيسه"

ابتسامة ساخرة من حازم، الذي قضم قطعة من البيتزا وتبعها برشفة كبيرة من المشروب الغازي، وقال وهو يمضغ الطعام بفم ممتلئ بعض الشيء:

ـ "وكنت أقول على نفسي أني مجنون!"

يضحك فرانك ثم يقول:

ـ "لا لست وحدك.. ولكن الجنون له لذة لن يعلمها إلا المجانين أمثالنا؛ يكفي فقط أنه يُخرجك من الطور الممل الذي نضع أنفسنا فيه، ويحررنا من قيود الروتين والعادات التي لا تنتهي.. لولا الجنون لمات الإنسان من الملل والاكتئاب"

ـ "معك حق، ولكن من ذا الذي يعترف بهذا!؟ حتى المجنون لا يريد أن يصارح نفسه"

ـ "معك حق.. مع أن أول خطوة من خطوات العلاج أن يعترف الإنسان بمرضه وخطئه.. أتعلم يا حازم؟ أنا لم أكن يومًا مثقفًا، وكان الأطفال ممن هم في مثل سني في المدرسة يسخرون مني دائمًا.. يأكلون طعامي ويتناوبون على ضربي، حتى جاء اليوم الذي أصلحت فيه كل ذلك"

باهتمام سأله حازم الذي يحب دائمًا أن يستمع لصديقه وهو يتحدث عن ماضيه الأليم بفخر كأنه جزأ لا يتجزأ من تكوينه:

ـ "وماذا فعلت؟؟"

ـ "لم أفعل شيئًا.. ظللت أهرب منهم وأتمنى أن ينسوني يومًا حتى كفوا عني ضربهم.. وكانت المفاجئة! ظللتُ أهرب وأتخفى من أشياء لم تكن يومًا موجودة.. أهرب من خيالاتي وأعيش في حلم جميل صنعه خيالي.. حتى اليوم الذي اعترفت فيه أمام نفسي.. وقفت وأنا نصف عارٍ أمام المرآة والشعر الخفيف قد خطَّ فوق فمي في تلك الفترة من فترات المراهقة.. قلت "نعم أنا فاشل.. نعم أنا ضعيف.. نعم أنا جبان".. ظللت أرددها طوال الليل حتى كدت أجن.

نظر بقوة إلى عيني حازم وتابع:

ـ "ثم أصلحت من نفسي.. عرفت مَواطن ونقاط ضعفي وعالجتها، ولكن العلاج كان أسهل مما يكون مثلًا لعلاج فشلي. مارست القراءة في كل شيء؛ فأنا أعلم أن المثقف يعلم كل شيء عن شيء، وشيئًا عن كل شيء.. قاعدة سهلة التطبيق وطبقتها ما استطعت.. مارست الرياضة لأعالج ضعفي، وكسرت حاجز الخوف، وأمشي بثقة حتى صرت فخورًا بنفسي، خصوصًا عندما يُشيد الناس بي.. ولكن حتى لا أكذب عليك يا حازم لقد عانيت الأمرين.. أتعرف ما هو أصعب جزء في علاجي؟؟"

بحيرة وتعجب وانبهار سأله حازم:

ـ "ما هو؟؟"

رد فرانك وهو يربت على كتف حازم ويقوم من على الأريكة واقفًا:

ـ "الاعتراف يا حازم.. أصعب جزء وأنا أهين نفسي أمام نفسي وأواجهها بالحقيقة؛ فالخطأ لن تستطيع أبدًا أن تعالجه طالما لم تذل نفسك بنفسك وتتعلم تلك القاعدة وتذكرها دائمًا.. لن يستطع المخطئ أن يُصيب، وسيتمادى بالأخطاء التي تتوالى تباعًا، حتى يعترف، فإن اعترف فسيُصيب يومًا ما"

ابتسم حازم؛ فهو يعلم فرانك جيدًا، ويعلم أن تلك الجلسة كانت من أجل تلك الجملة الأخيرة.. جلسة علاج لم يرغب صديقه أن يجعلها رسمية؛ فالعيادة الطبية يدخلها المريض حاملًا معه توتر الدنيا كلها. تابع فرنك كلامه وقال:

ـ "أتركك الآن.. كفاك إزعاجًا، وشكرًا على العشاء"

ابتسم حازم وظهرت على وجهه علامات الفرح، ثم قال:

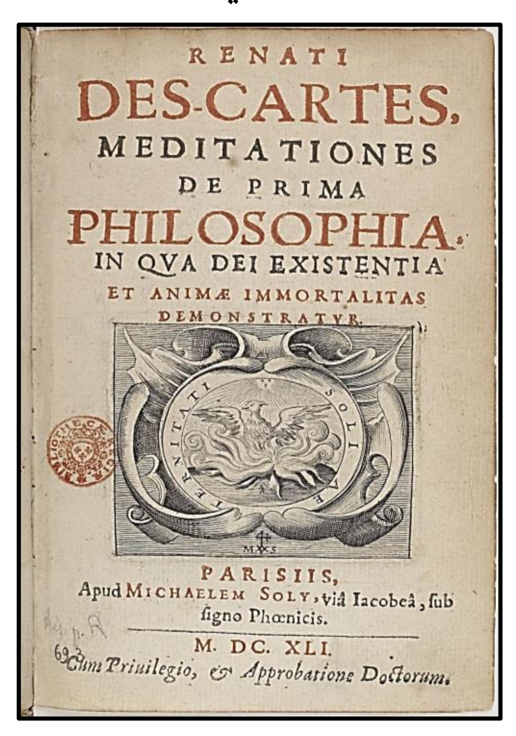
ـ "شكرًا جدًا يا فرانك"

احتضنه وتابع:

ـ "شكرًا يا أخي"

أغلق خلفه الباب ودخل فرحًا على مكتبه. أراد أن يُكمل كتابة في مذكراته، حتى عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة.. نظر لكتاب (رينيه ديكارت) بحزن؛ فكم كان يعشق هذا الرجل! مسح الغبار الذي غطى غلاف النسخة النادرة من الكتاب، حتى ظهر العنوان يلمع أمام عينيه.

[تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى]



RENATI
DES-CARTES,
MEDITATIONES
DE PRIMA
PHILOSOPHIA,
IN QVA DEI EXISTENTIA
ET ANIMÆ IMMORTALITAS
DEMONSTRATVR.



PARISIIS,
Apud MICHAELEM SOLY, viâ Iacobeâ, sub signo Phœnicis.

M. DC. XLI.

Cum Priuilegio, & Approbatione Doctorum.

نظر له بتأمل، ثم أسند رأسه على كرسيه الجلدي الأسود وبدأ يقرأ بانسجام.

أمام عينيه على أول صفحات الكتاب بعد المقدمة الطويلة تلألأت في منتصف الصفحة:

"التأمل الأول، في الأشياء التي يمكن أن تُوضع موضع الشك"

قلب الصفحة وبدأ يقرأ..

"ينبغي لنا، كي نُقْيِّم العلوم على قواعد ثابتة، أن نرفض كل آرائنا القديمة، مرة في حياتنا"

تبين لي منذ حين أنني تلقيت -إذ كنت ناعم الأظفار- طائفة من الآراء الخاطئة، ظننتها صحيحة، ثم وَضُح لي أن ما نبنيه بعد ذلك من مبادئ على حالها من الاضطراب، لا يمكن أن يكون إلا أمراً يُشك فيه كثيراً ويُرْتاب منه.

لهذا قررت أن أحرر نفسي جدياً مرة في حياتي من جميع الآراء التي آمنت بها قبلًا، وأن أبتدئ الأشياء من أسس جديدة، إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم قواعد وطيدة ثابتة مستقرة.

غير أن المشروع بدا لي ضخمًا للغاية، فتريثت حتى أدْرك سنًا لا سن أخرى بعدها آمل أن أكون فيها أصلح نضجًا لتنفيذه.. من أجل هذا أرجأته مدة طويلة.. أما اليوم، فقد غدوت أعتقد أنني أخْطئ إذا ترددت أيضًا دون أن أعمل في ما بقي لي من العمل...."(*)

توقف حازم عن القراءة فجأة، وتعجب جدًا من ذلك الكتاب؛ كيف قرأ نفسيته المتغيرة وكيف قرأ ما بداخله!؟ كيف شعر بعواطفه وأحس بأفكاره!؟ بل تعجب أكثر من الكلمات ذاتها التي قد تمر عليك آلاف المرات دون أن تنتبه لها، وفجأة دون سابق إنذار تدخل في أعماق قلبك لتضع لك فيه بصمتها.. تعالج لك أمراً أو

---

(*) رينيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقة في الفلسفة الأولى، تثبت أن الله موجود وأن نفس الانسان تتميز من جسمه، ترجمة: د/ كمال الحاج.

تنبهك لوجود مشكلة أو حتى تنبهك لها نفسها.. تذكر حازم كلمات كثيرة وجملًا قرأها واستوقفته لتترك فيه علامتها التي لن ترحل عنه بمرور الزمن، كالطعنة دائمًا لا تحس بألمها حتى تترك لك السكين بصماتها عليك والتي لن ترحل بسهولة.. هذا إن رحلت!

تحمس حازم لسيل الأفكار التي بدأت تواردە، وتذكر قول ديكارت:

ـ "من أجل هذا أرجأته مدة طويلة.. أما اليوم فقد غدوت أعتقد أنني أخطئ إذا ترددت أيضًا دون أن أعمل في ما بقي لي من العمل".

رددها لنفسه أكثر من مرة حتى حفظها عن ظهر قلب.. تذكر كيف وجد ديكارت من شكه وألمه منهجية أقل ما توصف به بأنها أكثر من رائعة، لكن ماذا لو أصابه التردد بلعنته وسيطر عليه!؟ وماذا لو استسلم لصراع أفكاره الممل!؟

قد تقولون لأنفسكم لم نكن حينها لنسمع به أبدًا.. ولكن ليس هذا الجوهر؛ فديكارت ترك بصمته في العلوم الرياضية أيضًا، ولكن أظن أن فلسفته قد نشأت ليحارب بها ذاته وأفكاره كما أفعل أنا الآن. لست إذن الوحيد الذي أصابتني لعنة الألم؛ فديكارت أيضًا فقد ابنته وحزن عليها مدة طويلة.. ولست الوحيد الذي يشك بكل شيء؛ فديكارت أيضًا خرج من الشك إلى غاية اليقين.. ولست الوحيد الذي يصارع أفكاره وتردده؛ فديكارت قد غلبها في آخر الأمر، لا بل ندم على تأجيله المتكرر للعمل.. وأنا لن أقع في نفس المحظور.

ما زال سيل الأفكار يتدفق إليه بعد أن كاد الملل أن ينال منه.. وهكذا قد تفعل بنا بعض الكلمات الصغيرة التي تُصيب مقتلها.. أو يدفعنا نحوها صديق عزيز.

ما زالت الأفكار تتدافع تدعو نفسها للخروج.. تنتظر اللحظة المناسبة ليِمسك بها حازم قلمه، لتبدا السيطرة.

كم كان يكره تلك اللحظة!! يشعر بالسيطرة التامة والعجز التام!!

السيطرة على أفكاره، والعجز عن التوقف حتى الثمالة.. لا يريد أن يترك فرصة للندم ولا مجالًا للشك.. "سأقتل التردد!".

"شكرًا لك ديكارت على هذه الدفعة من الحماس! ولا أعلم أأشكرك؟ أم أشكر الظروف التي جعلتني أشعر بكلماتك التي قرأتها آلاف المرات!؟"

"شكرًا لكم جميعًا"...

يُمسك أخيرًا بقلمه، لتبدأ حفلة خروج الأفكار لتُغرق الأوراق من أمامه. أمسك بقلمه وتوجه نحو الورقة البيضاء بعد أن ترك الكتاب بجواره، لا يعلم متى سيفتحه من جديد.. على الأقل حتى ينتهي من تدفق الأفكار المتتابع هذا.

أمسك بقلمه وكتب:

ـ "ستظل تستمتع بجمال تراقص ألسنة النار وزرقتها أمام عينيك، طالما تحرق مَنْ أمامك.. حتى إذا طالتك كرهتها"

AFbcU

# (٣٩)

تحت الإضاءة المتوسطة البيضاء ظهرت معالم مكتب عبد التواب المحامي، الجالس على كرسيه الأسود خلف المكتب الضخم الخشبي المطلي باللون البني الغامق، والمطعم ببعض الزخارف الذهبية على جوانبه وحوافه. على يمين تلك المكتبة الممتلئة بالكتب العملاقة الخاصة بمهنة المحاماة والقوانين المختلفة، بجلدها الأسود العريض المميز وتلك الكتابات المذهبة أو البيضاء للعنوان الخاص بكل كتاب. من خلفه وضع صورة شخصية له مرتدياً الروب الأسود الخاص بالمحاماة ويرتدي أسفله بدلة كاملة سوداء، معلقة على الحائط (البيج) حيث هذا اللون الذي كان يفضله عبد التواب قد غلب على معظم أركان الشقة الخاصة بمكتبه، إلا ذلك السقف الذي تدلت منه تلك الثرية الكهربائية؛ تلون السقف بلونه الأبيض الذي عكس الأضواء من خلف المصابيح المعلقة بتلك الثرية.

فضَّ عبد التواب المظروف الأصفر ليُخرِج منه تلك الأوراق المختومة بختم مكتبه الخاص، ثم نظر لمحمود وحازم وزوجتيهما الجالسين أمام مكتبه على الكراسي الخاصة، وأمام الأربعة وُضِعت فناجين من القهوة المضبوطة التي أعدتها سكرتيرته الخاصة.

ـ "رحمة الله على شيخنا عبد السلام وصفي.. الآن تلك الوصية والعقود الخاصة التي كتبها أمامي وهو بكامل قواه العقلية، ويوجد شاهدان على ذلك، وهذه توقيعاتهما الخاصة، وهذا ختم الحاج عبد السلام وصفي بجانب ختم مكتبي الشخصي"

قال ذلك وهو يشير إلى أماكن التواقيع والأختام الزرقاء الواضحة أسفل الأوراق الخاصة الوصية.. ثم بدأ يقرأ ما نصت عليه، حتى انتهى منها ونظر لحازم والوجوم ظاهر على وجهه لا يستطيع أن ينطق بكلمة.. قطع عبد التواب صمته:

ـ "هذه وصيته يا حازم.. أنت الآن حسب هذه الوصية تملك الخمسة قراريط من الأرض الزراعية خلف القرية على الطريق الجانبي.. قد اشتراهم مؤخراً.. ما عليك إلا أن توقِّع على هذه.. أما باقي الأموال والعقارات والأراضي فستؤول إلى أخيك؛ حيث قد كتبهم له والده الراحل"

رد حازم بغضب:

ـ "ولكن هذا ظلم!! أنا لن أسمح به!"

ـ "ماذا تنوي أن تفعل!؟ كل الأوراق سليمة أمامك.. ما عليك إلا أن توقع على تلك الأوراق الخاصة بقطعة الأرض"

ـ "ماذا!؟ وتأخذ توقيعي الخاص لتدينني به أمام القاضي في المحكمة وكأني وافقت على هذا الهراء!!؟"

رد المحامي بتعجب:

ـ "أي قاضي وأي محكمة!!؟"

قال حازم وعروق رقبته التي برزت فجأة تكاد تنفجر من الغضب:

ـ "نعم.. سأرفع قضية وسآخذ حقي كاملًا"

أمسكت هيام يد حازم تحاول تهدئته، ورد المحامي محاولًا تلطيف الموقف:

ـ "اهدأ يا حازم.. الوصية سليمة والعقود سليمة كلها.. ماذا ستفعل لك المحكمة!؟"

ـ "إذن سأطعن بالتزوير!"

هبّ عبد التواب واقفًا من الغضب ومحمود يحاول تهدئته:

ـ "لن أسمح لك أن تطعن أبدًا في نزاهتي.. أنت المخطئ ولست أنا.. لا تحاول أن تُحمل الآخرين نتيجة أخطائك"

ـ "أي أخطاء تقصد!!؟ هل تقصد بأني لا أسافر ولا أكمل تعليمي لأصبح جاهلًا مثل أخي أو محامي من أبو ربع جنيه تحت السلم مثلك!!؟ لن أسمح أن تتم سرقتي أبدًا!!"

ـ "ماذا!!؟"

بغضب تابع عبد التواب كلامه:

ـ "سأقدر الموقف الذي أنت فيه فقط الآن، ولكن من الأفضل لك أن ترحل؛ لأني لن أسمح بأي إهانة أخرى"

ـ "وأي إهانة أخرى قد تؤثر بك بعد أن بِعتْ نزاهتك وضميرك للباطل!!؟"

محمود صارخًا في حازم:

ـ "كفى يا حازم!! الأستاذ عبد التواب نزاهته معروفة في كل القرية.. لن يفعل أبدًا ما يُضيع ثقة الناس الغالية فيه.. وإلا ما كان أبوك ليثق فيه أبدًا!"

ـ "لا تتكلم يا محمود وكأنك مصلح اجتماعي.. أنت تعلم جيدًا ما كان أبوك ليفعل هذا وحده.. أنا أعلم جيدًا هذا، وأعلم أن أبي قد أخبرك لتأتي بهذا الورق اللعين ليلغيه، وأنت تلكأت حتى وافته المنية.. ويبدو أنك اتفقت مع هذا اللص لتسرقني، ولن أسمح بهذا أبدًا!"

أنهى حازم كلامه وأمسك بيد هيام وقال:

ـ "هيا من هنا!!"

خرج وأغلق الباب خلفه بعنف، فنظر عبد التواب لنجلاء وابتسم:

ـ "ما رأيك يا ست الكل؟؟"

ابتسمت نجلاء في خباثة ونظرت لمحمود وقالت:

ـ "ألم أخبرك أنه طامع في حقك!؟"

شرد محمود قليلًا، فأكملت نجلاء حوارها مع المحامي وقالت:

ـ "حسنًا ما الخطوة القادمة يا متر؟"

ـ "سننتظر حتى يرفع القضية، والتي سنكسبها تمامًا بكل سهولة؛ فالأوراق كلها سليمة، وسيتم رفض الدعوة بسرعة دون شك.. لكن لا تنسوا نسبتي"

ـ "لا تقلق يا متر.. حقك محفوظ.. أليس كذلك يا محمود؟"

نظر محمود الواجم لها، وقد استفاق من شروده اللحظي أخيرًا، وقال:

ـ "نعم نعم بالطبع.. هيا بنا يا نجلاء"

تصافح محمود مع المحامي -الذي بارك لهما على وصول أنباء بحمل نجلاء مؤخرًا؛ فالأرياف لا يختبئ بها سر حتى يذاع على الملأ، ولم يعلم محمود أبدًا من ذلك الشخص الذي أفشاه لأهالي البلدة- مصافحة تحمل الكثير من البرود، ثم تركه وخرج من المكتب، ثم من الشقة كلها، ليهبط على سلالم العمارة، وهنا استوقفته زوجته وسألته بحيرة:

ـ "ما بك؟؟"

ـ "لا شيء يا نجلاء.. عندي صداع خفيف"

ـ "لا يا محمود، أنت حزين.. أصعبان عليك أخوك؟ أم استكثرت الأرض التي سينالها!؟"

ـ "لا هذا ولا ذاك.. فقط أنا عندي صداع خفيف يا نجلاء.. دعيني الآن أرجوكِ"

تركها وأكمل مشواره نحو السيارة وهو يُشْعل سيجارته بنهم كأنه سيُمَزقها بسحبه التبغ المشتعل منها بشدة.. أدار محرك السيارة وبدأ يتحرك بها نحو المنزل وهو يضغط على المحرك بشدة، الذي كان يزأر كالأسد الجريح يتمنى أن يصل لوجهته بسرعة حتى يستريح.

وصل المنزل ليقابل حازم الذي يحمل حقائبه وهو خارج من البوابة الرئيسية.

نظر محمود له وقال:

ـ "إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت يا حازم؟؟"

تحاشى حازم النظر لأخيه، وقال:

ـ "سأرحل يا محمود.. لن أقبل أن أقْيم ضيفًا في بيتي.. هذه إهانة لن أقبل أن أعيش بها"

ـ "انتظر حتى الغد لنتكلم حتى في هذا الموضوع.. لا تأخذ قرارك وأنت في غضبك"

نظر له حازم بعينيه الحمراوتين من الغضب.. خاف منهما محمود وهزته من الداخل؛ فلا يؤلم في هذه الدنيا أكثر من نظرة حزن امتثلت في عيني إنسان؛ فهي كالسهام تُصيب قلوب أشد الرجال قسوة.

مرت نجلاء التي أغضبها حديث محمود مع أخيه، وقالت وهي تلكزه على ظهره:

ـ "هيا يا محمود"

نظر محمود لحازم وقال:

ـ "حسنًا يا حازم.. بيت أخيك هو بيتك في أي وقت.. افعل ما يحلو لك"

تركه ورحل. ولم يعلم حازم ما يمر به أخوه، أهو تأنيب الضمير الذي يتصارع بداخل طمع نفسه؟ أم هو مجرد إعلان آخر عن جودة أخيه في التمثيل؟ كم هو بارع!

أدار حازم محرك سيارته، ليرحل في الاتجاه الآخر، بعد أن أغلقت هيام الباب واحتضنت ذراع زوجها ونامت عليه.. لم تحتجْ أبدًا أن تنطق؛ فلغتها الخاصة تغني عن آلاف الكلمات.

AFbcU

# (٤٠)

في تلك القاعة المستطيلة التي تحمل كل معاناة سكان الأرض بداخلها.. تحمل معاناة المظلوم وتُرّضي أحيانًا الظالم..

قاعة أثبتت أنه لا عدل إلا عدل السماء؛ فقد تختلف نفوس البشر، وتختلف الدلائل التي ستصل بالقاضي للحكم على هذا أو ذاك، فيرفع ظالم ويحط من مظلوم؛ فقط لأن النفس البشرية أعجز من أن تنظر خلف الدلائل والأوراق الملموسة إلى ما خلف النفس البشرية ذاتها.

لذا فعدل الأرض سلاح ذو حدين، ولعل في قصة الروب الأسود الخاص بالمحامين لخير دليل على ظلم النفوس البشرية لبعضها البعض، ولعل القاضي سيصيب؛ فلم يلحظ أي قاض ولا ضابط شرطة ولا أي أحد ممن زاروا السجن أنه يحمل بداخله من يعترف حقًا بخطئه.. كلنا نرمي بأخطائنا من على ظهورنا بحثًا عمن يحملها بدلًا عنّا، ولن ينجح أبدًا إلا من يعترف بخطئه.

يُحْكى أنه في عام ١٩٧١م، وتحديدًا في فرنسا، كان أحد القضاة يجلس بشرفة منزله، وبالصدفة شاهد مشاجرة بين شخصين انتهت بمقتل أحدهما وهرب القاتل.

أسرع أحد الأشخاص ليحمل المصاب للمستشفى لإسعافه، ولم يعلم أنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة ومات.

اتهمت الشرطة الشخص المنقذ الذي كان بريئًا من كل هذا، وذهبوا به لقاعة المحكمة الأرضية المشؤومة.. وحيث أن العدل الأرضي يقتضي الوصول إلى الحكم بالدلائل والبراهين على الأوراق المقدمة فقط، فحكم القاضي -الذي كان نفسه شاهدًا على تلك الحادثة من قبل- على المتهم البريء بالإعدام، رغم أن كل الأدلة ضده. لا أعلم حقًا لماذا لم يعترف بخطئه إلا بعد فترة من الزمن بعد أن غلبته النفس المعذبة والضمير!؟ وأظن أنه خاف أن يعلن في وقتها أنه كان أجبن من أن

ينزل ليشهد على ما حدث في وقت أبكر من هذا. لعنة الخوف من المجهول قد تودي بنا لنخاف أن نعترف بأخطائنا، أو على الأقل بالحقيقة، رُغمًا عنًّا، خوفًا من ذهاب شهرة أو مجد زائف، أو حتى خوفًا من نظرة عيون الناس لنا.. هذا ظني في القاضي، ولكن في النهاية اعترف بعدما قتل بحكمه شخصًا بريئًا.. اعترف بعد فوات الأوان، وقد لا يفيد الندم في أغلب الأحيان.

اعترف أمام العامة بعدما اعترف أمام نفسه.. وقد اعترف!

في إحدى الجلسات في قضية أخرى بعدما أصبح رئيسًا للمحكة، وجد المحامي مرتديًا ذلك الروب الأسود، فسأله لماذا ترتدي هذا الزي!؟

رد المحامي برده المبهر، وأخبره أن الزي الأسود ليذكره بظلمه، وأنه قد حكم على شخص برئ من قبل بالإعدام.

رد مجحف، ولم أعلم أبدًا لماذا اللون الأسود هو لون الظلم!؟ مع أنه أفضل الألوان بالنسبة إلي. وأيًا يكن فقد يكون السبب في أنه لا يوجد أساسًا ما يسمى باللون الأسود؛ هو فقط يمتص كل الموجات الضوئية الساقطة عليه ولا يعكس أي منها.. طمع أم جشع، لا أعلم، ولكن في النهاية لا تراه العين بلونه فيظهر أمامها أسود.

انتقل هذا الزي من فرنسا لسائر الدول حتى وصل إلى هنا.. وها أنا أجلس في نفس مكان الشخص البريء، وأعلم عن ثقة كما أخبرني وكيلي المحامي بأن موقفنا صعب للغاية، لذا فأنا أعلم شعور الشخص قبل أن يقتص الجلاد عمره.

هرج ومرج أصاب حضور القاعة، ومازلت أنا على حالي واجمًا، حتى دخل الحاجب وأعلن بصوته العالي:

ـ "محكمة!!"

انتظم الناس بصفوفهم، ودخل رئيس المحكمة بوشاحه المعهود، الذي يضيف لهيبته هيبة، وعلى مسؤوليته مسؤولية.

ثم لا أعلم سبب الهرج والمرج الذي دار مجددًا.. تعجبت وقتها مما يحدث ومن سكوت القاضي.. نظرت نحو الرجل الذي يجري مهرولًا من القاعة.. تساءلت في نفسي:

ـ "إنه محمود!! لماذا يهرول كالمجنون!!؟"

أصابني الوجوم والحيرة، وأردت أن أذهب معه ولكن كالذي تسمرت قدماه.. حتى القاضي الذي تدرب طويلًا على كبت شعوره وعواطفه أصابه الذهول؛ فكيف يهرب رجلًا في انتظار سماع حكمه!؟ لم يعهدها من قبل وأراد أن ينادي عليه، ولكن قراره جاء متأخراً؛ فقد خرج محمود وخلفه نجلاء مسرعة.

أخرج القاضي الناس من حيرته بضربته بالمطرقة الخاصة وقال:

ـ "الصمت من فضلكم.. سكوت، وإلا سأخرجكم من القاعة"

نظر له الناس وعقولهم مشغولة بما يحدث خارجًا الآن، وكل منهم يتكهن.. إلا أنا، مازلت في حيرتي حتى أخرجني منها مسكة يد قوية سحبتني لأجلس.. نظرت لمن يمسك يدي، فوجدته المحامي الخاص بي، الذي قال لي بصوت منخفض بدا كالهمهمة:

ـ "اجلس"

بدأ رئيس المحمة نطق الحكم:

ـ "بعد الاطلاع على سائر الأوراق والمرفقات في القضية، وبعد المداولة، حكمت المحكمة حضوريًا: برفض الدعوى"

طرقة بالمطرقة.. ليِنادي الحاجب:

ـ "محكمة"

قام القضاة وتركوني مُعذَّب القلب يعتصرني الألم.. احتضني وكيلي المحامي وقال:

ـ "آسف.. موقفنا كان صعبًا جدًا.. كل الأوراق كانت ضدنا"

نظرت والحزن يملأ عيني بعد أن فاض به قلبي.

ـ "لا عليك يا أستاذنا.. قد فعلتَ ما ينبغي عليك أن تفعله.. لا عليك، أنت لم تقصر في شيء"

صمت طغى على الحوار.

ـ "هيا بنا"

خرج الرجلان، ومشى حازم متثاقلًا كأنه يحمل على ظهره هموم الدنيا كلها.. ظلَّ يعاني وهو ينقل قدم مكان الأخرى بصعوبة وبعناء، والحمل على ظهره يتثاقل، حتى وصل لباب المحكمة الرئيسي، ليجد رجلًا في منتصف الطريق غارقًا في دمائه، تتحرك يداه كالغارق في المياه، يبحث عن طوق النجاة ليتعلق به.

ركزت بصري عليه، وظللت أتابع المشهد مذهولًا، لأجد امرأة تبكي بجانبه وتمسك بيده اليمنى، تستغيث.. تابعتها قليلًا حتى تبينت ملامحها.

اللعنة إنها نجلاء!! صدمتني الدهشة، وهرولت مسرعًا ناحية الملقى على الأرض، وجلست بجانب أخي!!

ـ "تحمل يا أخي قليلًا! الإسعاف في الطريق!!"

زاغ بصره وظل يدور بعينيه في المكان كمن يبحث عن شيء ما.. يبحث عنه في وجوه الناس الذين وقفوا ينظرون، منهم من ظل يتابع توسلاته الصامتة البادية في عينيه، والآخرين يحاولون الاتصال بشخص ما أو بعربة الإسعاف لتنقذ هذا الرجل البائس، وهناك البعض معهم أمين الشرطة وثلاثة عساكر أمسكوا بالسائق الذي انهار بالبكاء وظل يردد:

ـ "لم أره! هو من ظهر أمامي على الطريق! حاولت أن أفاديه! ليس خطئي والله!"

قد يكون مُصيبًا، ولكن العُرف المُتَّبع في مصر في أي حادثة طريق أن السائق هو المخطئ لأن هو من معه الفرامل.. وكأنه ليس ببشر!

اقتربت منه قليلًا ووضعت يدي على بطنه.. نظر لي بسرعة وكمن رأى نجدته! أمسك بطوق قميصي، وظل ينظر لي بشدة ويُحاول أن يتكلم أو يقول شيئًا ما، ولكن يبدو أنه فقد قدرته على الكلام.. ظلَّ موجهًا بصره نحوي يحاول أن يقول شيئًا.. لا يستطيع.. وهذه قمة المعاناة!

فتح فمه قليلًا، لتبدو ظلمة فمه الذي سالت منه بعض الدماء وبها رغوة بيضاء من ريقه.. ظل يفتح فمه بصعوبة ويغلقه كمن تشتاق رئتيه للهواء أو تتصارع الكلمات مع حباله الصوتية.

سمعت ذلك الصوت خارجًا منه.. اقتربت منه قليلًا وهو موجه نظرة قوية لعيني:

اقتربت محاولًا أن أسمع منه همهماته، والمحامي عبد التواب يحاول بالأوراق في يده أن يعطيه بعض الهواء ليُخفف عنه.

سمعت فرقعة تلك الفقاعة الهوائية من ريقه المختلط بدمه.

شعرت بقبضته تهوي من على قميصي للأرض.

رأيت نور عينيه ينطفأ وينظر للفراغ السحيق.

أحسست بذلك العمق البادي في إنسان عينه الفارغ.

سمعت وشعرت ورأيت وأحسست.. وفي النهاية علمت يقينًا مع سماع صوت سرينة الإسعاف تقترب..

لقد رحل محمود!

صمتت نجلاء وهي تنظر له بعينين دامعتين، وسحبني أحدهم من يدي قبل أن يغطي وجهه بورقة جرنال الأهرام.

ورن الهاتف..

اقترب عبد الصمد من عبد التواب وأخبره أمراً ما.. جاء عبد التواب وهمهم مع المحامي الشخصي، وأنا في عالم آخر أتابع ما يحدث ببصري فقط دون أي شعور مني بالسمع لأي كلام.. فقط بعض الهمهمات المضطربة.

اقترب المحامي مني وقال:

ـ "لا أعلم أأعزيك أم أبارك لكّ"

ـ "كيف ستبارك لي فقداني لأخي الوحيد!؟"

رددت عليه بغضب ونظرة عتاب؛ فلست أنا من يشمت بالموت.

صدمني رده.. صدمني وصرخت من البكاء.. جلست بجانب جثة أخي وأنظر له وأبكي بحرقة.. صدمني بشدة حين قال لي:

ـ "لقد توفي (ناجي) ابن أخيك في المستشفى اليوم.. والآن أنت وريث محمود الشرعي لكل ثروته بعد اقتطاع نصيب الزوجة القانوني"

نظرت لنجلاء التي عرفت لتوها الخبر فأغشي عليها.

تبادل معها الناس ليِشاركوها

وتاهت الحقيقة بين نظرة حزن ومصمصة الشفتين

AFbcU

# (٤١)

مرّ يومان منذ خططت آخر كلمات تلك التجربة المريرة.. مرّ يومان لم أشعر بمثل تلك الراحة في نفسي عندما أخرجت ما بي من كبت وحزن.

حملت معي كوب العصير من الثلاجة، وذهبت للأريكة المقابلة للتلفاز.. قالت هيام:

ـ "لم أرك سعيدًا منذ فترة طويلة.. يبدو في النهاية أن فرانك كان معه حق"

ضحك فرانك وقال:

ـ "الأهم هو الاستعداد النفسي للعلاج.. هذا أهم من العلاج نفسه"

رد حازم وهو يرتشف من كوبه:

ـ "نعم نعم.. أعترف، أنا المخطئ، وهيام صاحبة الفضل في علاجي، مع احترامي لك يا فرانك"

قالت هيام مازحة:

ـ "نعم.. دائمًا أنا صاحبة الفضل"

مرت لحظات من الابتسامات والمزاح والضحك حتى قال فرانك:

ـ "حسنًا ستشرفنا في مؤتمرنا القادم يا حازم"

أبدى حازم رفضه ونظر لهيام، فتابع فرنك:

ـ "لا يا حازم.. لا تقلق؛ لن تتكلم أو تتحدث، مازلت تحت تأثير الصدمة.. الأهم أن تحضر؛ فأنا أريد أن أعرض مشكلتك أمام الجميع ويُهمني أنك تكون حاضرًا"

امتنع حازم معترضًا بشدة على ما يقوله فرنك.. قالت هيام:

ـ "لا تقلق يا فرنك.. سيحضر"

ـ "دائمًا ثقة النساء تغلب دومًا.. سأنتظرك يا حازم غدًا لا تتأخر علي"

ضحك حازم وقام ليُصافح ضيفه قبل أن يرحل، وقال:

ـ "حسنًا.. سأحضر"

ـ "تمام"

أغلق حازم الباب ونظر لهيام، التي سبقت كلامه قبل أن يسألها عن أي شيء فقالت:

ـ "جيد جدًا.. أنا موافقة"

تعجب حازم وقال:

ـ "موافقة على أي شيء؟"

ـ "على تناول العشاء معك تحت أضواء الشموع في Malmaison Brasserie"

ـ "لقد تدبرتِ كل شيء يا هيام!!"

ابتسمت وقالت:

ـ "كالعادة دائمًا.. من يرى!؟ قد تعود الأيام كسابق عهدها وتعود لي حازم الذي أحببته دائمًا بقدرته الخارقة على مواجهة المشكلات وتحديها"

ابتسم وقال:

ـ "ستعود.. ستعود يا حبيبتي"

AFbcU

# (٤٢)

في تلك القاعة الكبيرة ذات الكراسي الزرقاء، استمع الناس لكلمات فرنك عن مريضه حازم وصفي الذي وافق على عرضها على المجتمع والحاضرين ليسمعوها كتجربة علاج جاهزة للتناقش.

أبدى العديدون تأثراَ شديدًا، ومنهم من لم يهتم بها أو عجز تفكيره عن تصديق ما يحدث بها.

رفع أحد الحاضرين يده.. قال له فرنك:

ـ "تفضل تحدث"

قال:

ـ "مرحبًا.. أنا فقط لا أدري ما الحكمة من كل تلك التجربة التي تقصها علينا!؟ ولا أدري كيف كتب حازم كل تلك الكلمات أو مذكراته ليواجه بها خوفه!؟ بصراحة أشعر ببعض الملل، ولا أعلم حتى إن كان حازم هذا قد كسر خوفه أو تم علاجه تمامًا من صدمته التي منعته عن إلقاء الندوات أمام الغرباء، والذي اكتفى بمحاضرته الأسبوعية في الجامعة فقط لأنه اعتاد تلامذته، أو بمعنى آخر لم يستطع مواجهة مخاوفه، واكتفى بروتين الحياة التي اعتاد عليها"

قال فرنك بابتسامة:

ـ "حسنًا معك حق.. ولكن لن أجيب عليك.... في الواقع لا أجد أفضل من حازم نفسه ليُجيب لك عن سؤالك هذا"

أحس حازم بنار تسري في مؤخرة رأسه، وأصابه التوتر، وبدا واضحًا على عرقه الذي بدأ يجري على وجهه بشدة:

نظر له فرنك وقال:

ـ "هيا يا حازم.. لا تدعهم ينتظرون طويلًا"

ابتسم الحاضرون، وأراد أحدهم تشجيعه فصفق بيده، ليتبعه الجميع، حتى اهتزت القاعة بالتصفيق.. عندما وقف حازم وظل يتحرك ببطء نحو المنصة ليتحدث للحاضرين.

تنحنح أمام الميكروفون.. صمت الحاضرون في انتظار سماع كلمات حازم، الذي يعرفه بعضهم وينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر.

قال حازم:

ـ "لا أعلم ماذا أقول.. إحم"

ابتسم الحاضرون مع ابتسامته الخجلة، فأغمض عينيه وسمح لعقله أن يعود لحالة هدوئه المعتادة، ثم نظر للحاضرين:

ـ "من هنا بدأت، وهنا حيث سأنتهي.. انفلتت مني أيام وشهور بدت لي كدهر كامل، وما بيدي لأغير من الأمر شيئًا.. فقط أردت أن أواجه فيض الكلمات الذي يتدفق أمامي ولا أدري كيف أوقفه..

أردت أن أعلم كيف حدث هذا..

كيف مرت تلك السنوات الطوال دون أن ينتبه أحدنا لهذا..

تساؤلات كثيرة تدور ببالي لا أدري عنها شيئًا.. فقط تركت القلم يجري على الورقة التي كانت أمامي بيضاء.. ولم أبدِ أي اعتراض لأواجهه.

لا أخْفيكم.. قد أعجبني الأمر، وقررت أن أصبح كاتبًا مشهورًا.

ابتسم الحضور، بينما تابع حازم كلماته:

ـ "قررت أن أتابع معه ولا أعلم أين ينوي أن يتوقف بي!

سأذهب معه للنهاية.. لمحطتي الأخيرة.. حيث سيتوقف حينها أي معنى لآلة الزمن..

ولن ينطبق عليّ بعد ذلك أي قانون من قوانين الحياة الحية..

توقف عقلي عن التفكير المحدود أخيرًا.. أو توقف نهائيًا عن التفكير.. وحينها فقط أدركت حقًا ماهية نفسي..

يبدو أخيراً أنني سآخذ خطوتي الأخيرة، وأنا على يقين تام بأنها الخطوة الصحيحة.. واستحضرني حينها قول فرناندو بيساو «المرآة تعكس بدقة متناهية، لا تُخْطئ أبدًا؛ لأنها لا تفكر، يجدر بي أن أتصرف كمرآة وأن أكون كالبحيرة التي تعكس الحياة»..

إنه قراري النهائي.. سأظل أتابع حلمي حتى أنتهي منه أو ينتهي مني، وهذا ليس بالأمر الهين؛ فقد أقضي ما تبقى لي في هذه الحياة وأنا مازلت أحاول دون أن أخطو خطوة صحيحة للأمام.

وسأقاسي في سبيل ذلك الأهوال، ولكني أعلم في النهاية أنَّ تحمل لحظة واحدة من الألم بحمل معه حياة طويلة من المجد الذاتي.

لا أريد ان أزهو بنفسي، ولكن هذا قراري النهائي ولا رجعة فيه، ولا يهم أبدًا كيف سأصل به إلى النهاية؛ فقط سأدع حياتي خلفي وأنطلق لا أفكر أبدًا أين سأنجرف.

أو أين النهاية التي لا أرى بدايتها..

ولكن أدرك جيدًا أنه ما إن أنطلق لن تستطيع قوة في هذه الحياة أن توقفني، مثلما انطلق قلمي في يدي، ولا أعلم كيف وصل بي إلى تلك النقطة التي وضعتها في كلمة النهاية في كتابة تلك التجربة المريرة التي مرت بي، لأتمم خطًا طويلًا بدأ من نقطة الصفر التي ظننت أنها النقطة التي يسمونها البداية.

بعدما أنكر الجميع تلك الحقيقة الرياضية البحتة بأنه يوجد عدد لانهائي من الأرقام بين الصفر والرقم واحد، وتلك الأرقام المتعددة يُنكرها البعض ويتجاهلها لصغرها المتناهي، ولكن تجاهل الناس لها لا يُنكر وجودها، وأنها عديدة متعددة، لها مع كثرتها رونقها الخاص.

ثم في الأساس من يستطع أن يخبرني!؟

أو كيف لي أن أعرف أن الرقم صفر هو في الأصل نقطة البداية!؟

لماذا لا تكون الرقم ثلاثة أو أربعة مثلًا!؟

وهنا تكمن المشكلة الرئيسية؛ حيث إن اعتبرت أن كل رقم صغر أو كبر صحيح أو كان عشريًا هو خطوة حقيقية سأخطوها، فسأحتاج أعمار البشر جميعًا فقط لأصل لنقطة البداية.

وهذا تعبيري المجازي عن ماهية الكمال.

لذا فنحن عاجزون ناقصون مخدوعة عقولنا بوهم نحاول أن نعيشه، مع أن لحظة من التفكير تكفينا لنُدْرك مدى الألم الذي سيعتصرك نتيجة ذلك التفكير.

أخبرونا جميعًا كذبًا بأنه كلما ازداد تفكيرك وعلمك، ازدادت بصورة طردية سعادتك في هذا العالم، وهذا هو الوهم بعينه؛ فالقاعدة هنا تقول: «كلما ازداد تفكيرك وعلمك ازدادت الدنيا بؤسًا في نظرك؛ لأنك فهمت أخيراً ماهيتها»، وذلك هو المعنى الحقيقي الواهم الذي عجز الجميع عن تفسيره.

وسؤالي هنا: أرأيتم يومًا غبيًا أو مجنونًا يحمل على ظهره كل تلك الهموم التي تحملونها حتى مثواكم الأخير؟

إن رأيتم يومًا ذلك المشهد الفريد فأخبروني أرجوكم بأني مخطئ.

في تلك الحياة تُخْطئ وتصيب.. وهذه قاعدة أخرى من قواعد الحياة.. ولكن لا يهم متى ستخطئ؟ أو كيف ستصيب؟

ففي كل الأحوال ستُعاني؛ فتفكيرك هنا (هل أصبت؟ أم أخطأت؟) سيؤدي حتمًا للنهاية؛ لأنك اتخذت قرارًا..

وهنا ستُصيبك لعنة الحياة..

فإن أصبت فلنفسك، وإن أخطأت فلغيرك، والعكس بالعكس؛ فنتيجة تلك القرارات دومًا ما تكون نسبية؛ فنرى أنفسنا نندم أو نتحسر أو قد لا نبالي ونسعد.

تخالجنا عواطف مشتركة تأكل بداخلنا ما طالته أيديها.. لذا فالقاعدة الجديدة تقول: «لا تُسلم نفسك أبدًا لعواطفك؛ فستلتف حولك حينها كالأخطبوط بأذرعها العديدة، ولن تستطع الخلاص.. وحينها كيف ستمضي في حياتك!؟»

كـــــيف المضـــي؟

سؤال لا إجابة له، وبعد عمري هذا وكل تلك التجارب مازلت لا أعلم إجابته.. وعن يقين فالقليلون فقط الذين حباهم الله تلك الهبة الفريدة لم يُسّعفهم الوقت أو العمر ليخبرونا بما علموه.. إنها الحقيقة التي تأتينا عندما يُزال عن أعيننا الغشاء، فننظر بعين مجردة عن كل عاطفة ودون أي تفكير لحقيقة أفعالنا وشكل الحياة، ننظر دون عواطف أو تفكير كالمرآة، وحينها ستنعكس حياتك برقة متناهية وتراها بعين الوضوح حتى لن يسعك في النهاية سوى البكاء على حالك، والرثاء لغباء الناس الذين أفنوا حياتهم زحفًا نحو أمل مجهول زائف.

وإن رضوا فقط بما في أيديهم وكفاهم، لأحسوا فقط بنعمة الحياة حينها، تلك الحياة التي استخسرها العديدون في أنفسهم وكان لسان حالهم يشكو بأنه لم يكن له أن يحيا فيها، وكأن الأمر بيده!

لن أفْني حياتي بعد الآن في أمل زائف.. بل سأدعها تمر أمامي دون أن أمْسك بطرف الخيط الطويل، الذي سيصل بي إلى بداية ستؤدي حتمًا لنهاية ما قد لا أراها.

وها أنا قد أنهيت بيدي كتابة مذكرات تلك التجربة الأليمة التي مررت بها، لأبدأ بعدها لحظات عديدة من تصوفي اللانهائي، ولن أعود منه أبدًا حتى أثق تمامًا بأنها قد انتهت تلك الخطيئة التي مازالت تؤرقني أحداثها.

مازلت أنتظر إعلان الشريط الأسود الذي سيخط بخط أبيض عريض كلمات النهاية لتتلألأ أمام عيني، ولن يُهمني أبدًا ما سيحدث بعدها.. لن يشغلني بعد الآن هذا الأمر؛ فأنا أثق تماما أني لن أخْطئ مجددًا، لتخبو نار تلك الفتنة، ولن تحرق أبنائي كما حرقت أخي بنارها.. ولا أرى في أعينهم أبدًا تلك النظرات

العميقة التي ستأخذك في عالم أسود تتذكر فيه كل خطاياك، لتتعذب وينقطع حالك وأنت تشكو شدة تلك النظرات التي لن يحتملها أحد.

دعوني أذهب الآن..

دعوني أذهب وحيدًا..

دعوني أذهب بعيدًا في عالم واهم؛ علَّه يكون نقيًا شفافًا، وحينها سأنكب على وجهي تنهمر من عيني الدموع، وأقضي ما بقى لي من العمر حزينًا أنه في يوم ما انجرفتُ خلف عواطفي.

أنا ذاهب الآن ولن أعود، وإن عدت يومًا فلن أكون كما عهدتموني من قبل؛ لأن جراح القلب لا تلتئم، وتترك دائمًا ذلك الجرح الدميم.

ولكن حينما أعود اعلموا أن قلبي استراح، ووثقت يقينًا أني قد أنهيت الألم وأطفأتُ النار.

اعلموا أنها قد انتهت الخطية..

عاد حازم ليجلس مكانه.. أمسكت هيام بيده الساخنة من التوتر الذي أصابه، والتهبت القاعة بالتصفيق الحاد.

منهم من تأثر من شدة الألم الذي بدا بصوته.. ومنهم من فرح بعودة حازم واستبشر خيرًا..

أكثرهم فرحًا كانت هيام، التي عاد لها زوجها، وفرنك الذي اكتسب أخًا له لم تلده أمه، وإيمي الجالسة بالصف الأمامي التي فرحت بعودة أستاذها الفريد.

AFbcU

# (٤٣)

في الشارع الموازي لنهر ميرسي يقع Malmaison Brasserie، ذلك الفندق المترف الحاصل على أربعة نجوم، والكازينو الخاص به الذي اعتاد حازم أن يخرج مع هيام فيه.. ثم بعدها يذهبون لتقضية الوقت تمشيةً بجانب النهر الذي دائما ما يأسره منظره لأنه يذكره بنهر النيل في مصر.

جلس الزوجان بانسجام على تلك المنضدة المجاورة للنافذة التي تطل على الخارج.

تحت الأضواء الخافتة تراقصت ألسنة اللهب على الشموع الحمراء، فانعكست على صفاء عيني هيام في منظر خلاب طالما أسر قلب حازم.

ظلت تنظر له وعلى ثغرها ابتسامة خفيفة.. مرت لحظات بدت كعمرها كله.. لم تعرف كم مر من الوقت حتى عاد حازم لها من جديد بعدما واجه خوفه.

إنها سعيدة الآن تشعر أنها تملك الدنيا كلها.

حاول حازم أن يُخْفي خجله من نظرات زوجته كزوجين مراهقين اختطفا من يومهما ساعات قليلة أو تبادلا نظرات خاطفة.

لاحظت هيام خجل زوجها البادي من تورد واحمرار خديه، فخرجت منها ابتسامة واسعة بدت فيها بياض أسنانها المنسقة في محاولة منها لتخفيف خجل زوجها.

همّت أن تقول شيئًا، لولا أن النادل قد اقترب منهما ووضع بعض أطباق العشاء، وملأ أكوابهما الفارغة بعصيرهما المفضل.

- "أي أوامر أخرى يا سيدي؟"

سأل النادل حازم كالمعتاد، فأجابه حازم بعدما بادله نفس النظرة وهو يُداري الرعشة الخجلة التي بدت واضحة في صوته:

ـ "لا.. أشكرك"

رحل النادل وترك الزوجين المراهقين على حالتهما السابقة.. بادرت هيام بالسؤال وقالت:

ـ "حسنًا.. لم تخبرني بعد"

ابتسم حازم ابتسامة خفيفة وقال وهو يعلم مقصد هيام:

ـ "ماذا أخبرك؟؟"

ردت هيام عليه بنظرة عينيها.. سكتت قليلًا قبل أن تتابع وتقول:

ـ "كيف عرفت كل تلك التفاصيل عن أخيك محمود؟؟"

ضحك حازم فاغتاظت هيام:

ـ "أقلت ما يضحكك!؟ آسفة"

أمسك بيدها وضغط عليها قليلًا:

ـ "لقد أقلقتِني عليكِ.. كنت أسأل نفسي كل يوم متى سيدفعها الفضول لتسألني هذا السؤال؟ لم أعلم كيف انتظرتِ كل تلك المدة! كان الله في العون يا أخت هيام"

ردت بضربة خفيفة على يده:

ـ "هيا أخبرني!"

شرب رشفة من العصير ثم نظر لها:

ـ "من نجلاء طبعًا.. أكان عندك شك في هذا!؟"

ـ "نجلاء!!!؟"

بتعجب سألته هيام فتابع هو كلامه:

ـ "نعم نجلاء.. خير الخطّائين التوابون يا هيام.. اتصلت بي قبل أن نعود لإنجلترا وأخبرتني أنها تريد مقابلتي.. فذهبت إليها و...

قاطعته هيام:

ـ "ذهبت إليها من ورائي!!؟ لم تخبرني!!؟"

الغضب ملأ عينيها.. أمسك بيدها وابتسم لها ثم تابع:

ـ "لم أخبرك لأنك لن توافقي أبدًا.. ثم ذهبت إليها ولمحت ذلك التردد في عينيها، فطمأنتها بأن الموضوع بالنسبة إلي انتهى.. أقصد طبعًا خلافنا القديم.. فقالت لي:

ـ "أريد أن أعترف لك"

رددت عليها:

ـ "حسنًا..؟"

ـ "لا أطلب منك أن تسامحني، ولكن سأخبرك حتى أدع المجال لنفسي وأحاول أن أتسامح معها ولا أتمادى في الخطأ أكثر من هذا... لا أريد أن أقابل ربي عاصية مخطئة"

بكت، ثم بكت بحرقة، وقبل أن أقول لها شيئًا قالت لي:

ـ "أنا كنت سبب كل هذا"

نظرت لها بذهول، ثم تراجعت وحاولت أن أخفف عنها، حتى لا تنهار أمامي..."

قالت هيام تقاطعه وهي تعض على شفتيها:

ـ "ما ذلك الحنان!!!؟"

ـ "قلت لها يا هيام بعد ذلك:

"ما حدث قد حدث يا نجلاء.. وأنا فتحت صفحة جديدة في حياتي، وأتمنى أن تفتحي أنتِ الأخرى لنفسك صفحة جديدة حتى تستطيعي متابعة حياتك حتى يرتاح قلبك"

ردت وهي تمسح دموعها في منديلها الشخصي:

ـ "ولهذا أنا هنا يا حازم.. سأحكي لك كل شيء...."

ـ "حسنًا يا نجلاء.. احكي..."

وأكمل لهيام خاتمًا: "ثم قالت لي ما كتبته"

ردت عليه هيام:

ـ "وهل وثقت بها!؟؟"

ـ "ولماذا ستكذب علي!؟ لا تدفعي من يريد التوبة بعيدًا عنك يا هيام؛ فقد تدفعينه بيديك نحو الهلاك، ثم تشاركيه خطيئته بدفعك له.

السماح هبة للمخطئين...

صمتت قليلًا.. ارتشفت من الكوب، بينما أمسك حازم يدها وضغط عليها كالطفل الصغير الخائف من غياب أمه، ثم قال:

ـ "تذكري دومًا ما قلته وكتبته يا هيام"

**«محاولاتنا البائسة لنُطْفئ نار خطايانا، هي أولى خطواتنا نحو الخلاص»**

AFb تمت bcU

